

مركز  
ابن خلدون  
للدراسات الإسلامية



كمال عبد اللطيف

في

الفلسفة

رؤية المعاصرة

0169530



Bibliotheca Alexandrina







# فلسفة العربية المعاصرة

رقم الايداع

٨٧٣٩

I. S. B. N

977 - 07 - 222 - 6

الطبعة الأولى ١٩٩٢

جميع الحقوق محفوظة ©

دار معاد الصباح

ص. ب. : ٢٧٢٨٠

المسافة ٣١٣٣ - الكويت

ص. ب. : ١٢ المقطم - القاهرة

الإشراف الفني : حلمى التونى

كمال عبد اللطيف

فلسفة

الفلسفة

العربية المعاصرة





## مقدمة

تتجه المحاولات التي يضمها هذا الكتاب\* نحو مجموعة من القضايا الفلسفية التي تدور في فلك الفكر العربي المعاصر ، وهي لا تروم التأريخ لهذه القضايا ، قدر ما تحاول التفكير في أبرز الإشكالات التي بلورها درس الفلسفة في الفكر العربي المعاصر .

صحيح أن بعض الأبحاث يقارب إشكال البدايات والتأسيس ، وبعضها الآخر يجادل في أنماط التأويل التي أنجزها الفكر العربي للتيارات الفلسفية الغربية في عقود تاريخية منصرمة ، إلا أن هذه المقاربات لا تتوخى الإحاطة التاريخية الجامعة ، بل إنها توظف التقصى التاريخي ، لتتمكن من معاينة العوائق النظرية التي تحول دون رسوخ المغامرة الفلسفية المبدعة ، في مجال النظر العربي .

وإذا كنا نعتقد أن المد الإيديولوجي القوي الذي ملأ ساحة النظر الإنساني في زمن انتصار الأنساق الفلسفية والسياسية القطعية والكلية ، قد حاصر نزعات التمرد الفلسفي الخلاق ، فإن هناك اليوم مؤشرات

---

\* كتبت هذه الأبحاث في الفترة ما بين ١٩٨٥ ، ١٩٩٠ باستثناء البحث الثاني الذي حررناه في مطلع الثمانينات ، وقد تمت إعادة النظر في بعض فقراته قبل نشره في هذا المجموع ، ولابد من الإشارة إلى أن هذه المقالات قدمت في صورة عروض في ندوات وملتقيات علمية .

متعددة تنبئ بإمكان انتعاش القيم الفلسفية المناهضة للوثوقية والكلية ، وهو ما يعنى رد الاعتبار لقدرة العقل البشرى على مواصلة بنائه للأسئلة التى تحفز على النظر وتدعو إلى التفكير .

داخل هذا الإطار حاولنا فى بعض أبحاث هذا الكتاب كشف بعض نقائص الفلسفة العربية المعاصرة ، كما حاولنا إبراز المحدودية الفلسفية لبعض المحاولات التوفيقية المهادنة لأسئلة التاريخ والسياسة فى حاضرتنا .

وقد اعتمدت محاولتنا على مجموعة من المسلمات التى نعتقد بنجاعتها النظرية فى مجال تدعيم القول الفلسفى الخلاق ، ولهذا دافعنا عن استقلالية النظر الفلسفى لمصلحة استقرائية فكرية تنظر إلى الفلسفة باعتبارها فاعلية نظرية تعلق على كل رهان سياسى ظرفى ، رغم وعينا بالترابط العميق الموجود بين الفلسفة والسياسة ، كما أبرزنا أهمية الأفكار الفلسفية المتحررة والمفتوحة فى تعميق النظر الإنسانى وصياغة الرؤى التى تسعف بالنظر السديد .

ولهذا كان هاجسنا المركزى فى أغلب مقالات الكتاب ، هو الدفاع عن قيم التأصيل الفلسفى ، ذلك أن وعينا بالقصور التاريخى للنظر الفلسفى فى الفكر العربى الإسلامى ، هو الذى يدعونا إلى التفكير فى سبل تأسيس وإنشاء خطاب فلسفى عربى يساهم فى تعميق مسار تاريخ الفلسفة .

ولا يكون التأصيل فى نظرنا بالتحمس المنفعل بأطروحات ومفاهيم تاريخ الفلسفة ، قدر ما يأتى بمباشرة حوار تاريخى ونقدى مع هذه المفاهيم والأطروحات ، للتمكن من صياغة نظر فلسفى متجاوب مع منجزات تاريخ الفلسفة ، ومطابقا لمتطلبات حاضرتنا ومستقبلنا .

وإذا كان درس الفلسفة العربية اليوم يعانى من عوائق وصعوبات نظرية وتاريخية لا حصر لها ، فإنه فى الوقت نفسه يتجه وسط هذه العوائق

والصعوبات نحو بناء تاريخه الخاص ، وذلك بصياغة أطروحات فى باب الفلسفة السياسية والحضارية المطابقة لأحوالنا ، كما يتجه نحو الدفاع عن قيم العقلانية النقدية ، ومن هنا ضرورة تعميق النظر فى هذه المفاهيم والأطروحات لتعميم وتعميق الخطاب الفلسفى العربى ، وإن يتأتى ذلك فى نظرنا إلا باستعمال مبضع النقد ، والإعلاء من شأن القيم العربية ، والاستفادة من الرأسمال الرمضى للمفهوم الفنى الخلاق ، لتتمكن الفلسفة من الحضور الفاعل فى فكرنا ، ونتمكن من صياغة قضاياها التاريخية بكثير من الدقة والوضوح ونستغنى عن أشباه المشاكل التى تطفو فوق سطح ثقافتنا وتشوش على أساليب استدلالنا .

ونحن لاندعى فى المحاولات المذكورة ، أننا نمتلك أجية قاطعة عن الأسئلة التى أثرنا الجدل حولها بل إننا نمتلك فقط شجاعة إبداء الرأى فى هذه الأجية لتتمكن من المساهمة فى ترسيخ قواعد الحوار العقلانى بالصورة التى تغنى صيرورة الجدل الفلسفى ، وتطوره فى حقول معرفتنا المختلفة .

إن نقد التراث ، والدفاع عن قيم المعاصرة وإضفاء النسبية على مبتكرات تاريخ الفلسفة ، وإعطاء الاعتبار الأول فى التاريخ للإنسان والعقل كلها قيم نُقِرَ بحاجة عصرنا إليها ، لكننا لا نعتقد فى الوقت نفسه بوجودها التام والمكتمل فى تاريخ الفلسفة ، وفى تاريخ الصراع المجتمعى المتواصل، كما لا نعتقد بوجود إتفاق تام حولها ، لهذا ندعو إلى بلورة حوارات مفتوحة فى موضوعها حتى نتمكن من بلوغ عتبة التأصيل الفلسفى ، وفى هذا السياق بالذات تندرج محاولتنا فى هذا المؤلف لعل وعسى أن تثمر حواراً يساهم فى تطويرها ، أو تثمر وضوحاً فى المقاصد يمكننا من تجاوزها ...



## ١ - فى بدايات

### الفلسفة العربية المعاصرة

اهتمت أبحاث كثيرة بالتيارات الفكرية المتصارعة فى مجال النظر العربى المعاصر ، وتم التركيز فى أغلب هذه الأبحاث على المستويات الإصلاحية ، والمستويات الأيديولوجية ، ومن النادر أن تعثر فى الأبحاث على أى متابعة لبدايات تشكل الخطاب الفلسفى فى الفكر المعاصر ، قد تبرر هذه الندرة بعامل غياب الأنساق الفلسفية من مجال الفكر العربى ، كما قد تبرر بالانقطاع الملحوظ للحضور الفلسفى المبتكر ، أو باعتبار أن الحضور الفلسفى فى مجال النظر العربى لا يتجاوز نقل وترجمة بعض التيارات الفلسفية الغربية ، ومع ذلك فإن كل الاعتبارات التى ذكرنا لا تعفينا من تسجيل التقصير الملحوظ فى هذا الباب .

نتجه محاولتنا نحو المساهمة فى بحث موضوع بدايات الفلسفة العربية المعاصرة ، وهى محاولة تسلم بوجود مباحث وأطروحات ومفاهيم فلسفية ظاهرة ومضمرة فى الكتابة العربية ، رغم المدارس الفلسفية بمعناها المعروف فى تاريخ الفلسفة ، ورغم غياب الإبداع الفلسفى .

ولابد من الإشارة فى هذا التمهيد ، إلى أننا لا نريد البحث فى القول الفلسفى فى الفكر العربى المعاصر على وجه الإطلاق ، بل إننا نتجه فقط صوب النصوص المنتجة فى الحقبة التى اعتدنا تسميتها «بعصر النهضة» أى النصوص التى أنتجت فى الفترة الزمنية الممتدة من منتصف القرن التاسع عشر إلى بدايات القرن العشرين .

قماهى طبيعة الحضور الفلسفى فى الكتابة العربية المعاصرة ؟ وبأى معنى يمكننا أن نتحدث عن فلسفة وفيلسوف داخل دائرة الفكر الإصلاحى السائد فى عصر النهضة ؟

قبل محاولة إنشاء جواب عن هذا السؤال ، نريد الانطلاق من الأوليات الآتية :

١ - قد يتضمن الإقرار بانتماء نص منصوص خطابات النهضة العربية إلى دائرة القول الفلسفى نوعاً من المجازفة ، ونحن لا نملك هنا إلا أن نجازف ، وذلك لاعتقادنا بأن المحافظة على نموذج ثابت ، واحد ووحيد للقول الفلسفى يرسخ فرضية قابلة للأخذ والرد ، ومن هنا فإن بحثنا فى الفلسفى فى خطاب النهضة العربية ، لا يروم فقط استحضار حدود ومجال ومستويات الفلسفى فى الفكر العربى ، بقدر ما يهيم أيضاً إعادة النظر فى النماذج المعروفة للقول الفلسفى ، وذلك بإبراز طبيعة الآداب الفلسفية التى سادت فى محيط النظر العربى المعاصر .

فلا يمكن بإسم فرضية مستقاة من صيرورة تاريخ الفلسفة أن نرتب ونصنف أنماطاً وحدوداً للقول الفلسفى ، بدون أن نعيد التفكير فيها ، فعندما تتوافر معطيات تاريخية جديدة ، يلزمنا أن نعيد النظر فى القوالب والنماذج ، ونحن نملك فى سياق تاريخ الفلسفة كثيراً من الأمثلة التى تدعم هذا المسعى ، فلا أحد من مؤرخى الفلسفة يخرج أدبيات فلسفة الأنوار من دائرة الاهتمامات الفلسفية ، ولا أحد يستطيع اليوم - بعد كل التحولات التى عرفها مفهوم الكتابة على وجه العموم ، ومفهوم الكتابة فى سياق الفلسفة المعاصرة على وجه الخصوص - الركون إلى نموذج مغلق ونهائى للقول الفلسفى (١) .

٢ - عندما نبحث فى وضع نظام القول الفلسفى فى كتابات المصلحين العرب المعاصرين ، فإننا لا نروم مماثلة نظام الفلسفة فى عصر النهضة الأوربية بالمعطيات الفلسفية المتولدة فى الخطاب العربى المعاصر ، فلا أهمية فى نظرنا للقيام بمماثلة من هذا القبيل .

فقد كان للفلسفة فى عصر النهضة الأوربية ، كما هى أسسها التاريخية ، وقواعدها النظرية ، ضمن صيرورة تاريخ الفلسفة ، وتاريخ العلم ، وتاريخ المجتمع ، وحصل شأن آخر لمصير تاريخ الفلسفة فى العالم العربى الإسلامى وستتيح لنا هذه المساهمة حصر مساحة وحجم الفلسفى فى الفكر العربى المعاصر .

٣ - لا يمكن التفكير فى الفلسفى ، فى الفكر النهضوى، دون استحضار الصعوبات والعوائق التى واجهت ووجهت النظر العقلى ، والنظر التأملى النقدي فى تاريخ الإسلام ، فمن المؤكد أن اللحظة الزمنية المسماة «عصر النهضة» تندرج فى سياق زمانى أوسع هو تاريخ الفكر العربى الإسلامى، ومعنى هذا أن كل حديث عن نظام القول الفلسفى فى عصر النهضة يتطلب استرجاع المنظومة المرجعية المؤسسة فى فلك الفلسفة الوسيطية ، فى توجهاتها الكبرى ، ومفاهيمها ومصطلحاتها الرئيسية (٢) .

٤ - أما الأولوية الرابعة ، فهى عدم إغفال أهمية التحول التاريخى الذى عرفه العالم العربى ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ، وذلك فى إطار التحولات التى أفرزتها الهيمنة الإمبريالية فى مختلف أصعدة الوجود التاريخى العربى ، فقد توقف منذ ذلك الوقت النمو الذاتى بهذه المجتمعات ، وانتقلت جوانب من المنظومة الفكرية الغربية إلى مجال النظر العربى ، مما ترتب عنه ازدواجية ملحوظة فى مجال الفكر ، فأصبح الإنتاج النظرى العربى على وجه العموم

محكوماً بمنظومتين مرجعيتين متناقضتين ، منظومة تراثية وسيطية (المنظومة الإسلامية) ومنظومة فكرية غربية ، (المنظومة الليبرالية) (٣) .

تقف الأوليات المذكورة وراء تصورنا لنسيج الكتابة الفلسفية فى خطاب النهضة العربية ، ذلك أننا لا نستطيع أن نتقدم فى فهم آلية الفكر الفلسفى العربى المعاصر ، دون ربطه بصيرورة التاريخ العربى المعاصر ، فى مستوياتها التاريخية والنظرية المختلفة ، ودون مساعلته فى ضوء أسئلة وإشكالات تاريخ الفلسفة .

انطلاقاً مما سبق ، نتساءل مرة أخرى ، كيف تشكلت بداية الفلسفة فى الكتابة العربية المعاصرة ؟

سنحاول الجواب عن هذا السؤال من خلال عرض وتحليل المحاور الآتية :

١ - فى مرجعيات فلسفة النهضة العربية .

٢ - الفلسفة السياسية : حدود ومستويات .

٣ - الكاتب الفيلسوف .

## ١ - فى مرجعيات فلسفة النهضة العربية :

أمران تحكما ومازالا يتحكمان إلى يومنا هذا فى خطاب الفلسفة فى الوطن العربى أولهما حمولة تايخ الفلسفة ، وثانيهما الموروث الفلسفى الإسلامى ، بالإضافة إلى الأطر التاريخية والمعرفية العامة . وبين المحددين الأول والثانى ، وفى سياق المجرى التاريخى الذى يؤطر اللحظة العربية المسماة عصر النهضة ، استقرت عادة إنتاج القول الفلسفى محددة نمطها الفكرى الخاص والمتميز .



وإذا كان التقاطع التاريخي الوسيطى ، بين الفلسفة اليونانية ومجال النظر الإسلامى ، قد أنتج الفلسفة الإسلامية الوسيطية ، بكل ما لها وما عليها <sup>(٤)</sup> ، فإن التقاطع التاريخي العنيف الذى حصل فى العالم العربى ضمن محددات تاريخية جديدة مخالفة لعصورنا الوسطى ، فى نهاية القرن الماضى ، أنتج بدوره ردود فعل فلسفية متعددة فى الفكر العربى المعاصر ، وقد أتسمت ردود الفعل هذه بسمات غلب عليها طابع رجع الصدى ، أكثر من طابع المشاركة الندية فى الابتكار ، والمساهمة فى إغناء تاريخ الفلسفة .

ودون أن ندخل فى استعراض مفصل لكل النتائج التى تربت عن انتقال لحظة من صيرورة تاريخ الفلسفة ، إلى مجال الفكر العربى المعاصر ، نشير إلى مسألة أساسية ، ، توضح خصوصية الحضور الفلسفى فى كتابات عصر النهضة ، وذلك بحكم التوجّهات التاريخية ، والمنظومات النظرية المرجعية المؤطرة لهذا الحضور . يتعلق الأمر بعدم وجود أنساق فلسفية بالمعنى التقليدى الذى تحدده عادة مصطلحات من قبيل «نسق فلسفى» ، «تيار فلسفى» ، «مذهب فلسفى» . فلم تنتج النهضة العربية مدارس فلسفية ، من قبيل الديكارتية ، والكانطية . لقد أدت الثقافة العسيرة الحاصلة بين المشرق العربى والغرب الأوربي ، فى مرحلته الاستعمارية ، فى القرن الماضى وبدايات هذا القرن ، إلى تعرف المثقفين العرب فى مرحلة أولى على المنظومة الفلسفية الفرنسية المؤطرة بالتوجه الفكرى العام لفلسفة الأنوار ، ثم تعرفوا فى مرحلة ثانية على الليبرالية الإنجليزية ، والفلسفة الوضعية <sup>(٥)</sup> ، مما جعل الخطاب الفلسفى العربى يتخذ طابعاً سياسياً تاريخياً ، بدون أن يتمكن من صياغة أبنية فى فلسفة السياسة . فسادت النزعات الليبرالية الداعية إلى الحرية ، والتقدم ، والنزعات الوضعية المواكبة لطموحات العلم ، والمتحمسة لدعاويه ، حيث وظفت الأبعاد الإيديولوجية للتوجه الوضعى بدون أدنى اهتمام جدى بأبعاده الأخرى <sup>(٦)</sup>

ولا تعنى السيادة هنا الانتشار والتغلغل والمساهمة فى توجيه التاريخ ،  
إنها تعنى بالدرجة الأولى تعرف النخبة المثقفة فى العالم العربى على هذه  
التيارات والمدارس الفلسفية ، ومحاولة نقلها بواسطة الترجمة والتأويل ، من أجل  
توظيفها فى أفق التوجه الإصلاحى المهيمن على الفكر العربى المعاصر

ويستطيع المهتم بالنصوص ذات الصبغة الفلسفية فى الفكر العربى ، أن  
يلمس ثقل المنظومتين المرجعيتين الإسلامية والغربية ، فى صياغة منطق الكتابة  
الفلسفية ، كما يستطيع تبيين الدور الذى لعبته المرجعية التاريخية ، الناعمة  
للمنظومتين السابقتين ، والمتمثل ، فى متطلبات زمن التأخر العربى الشامل فى  
تلوين الترجمة والتأويل ، وفى توجيه الكتابة الفلسفية نحو قضايا ذات صبغة  
تاريخية ، سياسية ، محددة .

لم تكن إذن عملية تكون النص الفلسفى فى الكتابة العربية المعاصرة ،  
مجرد عملية نظرية مدعمة بمرجعية مزودة ، وسياق تاريخى معين ، بقدر ما  
كانت عملية معقدة ومركبة . لقد عاصرت هذه العملية زمناً أندثرت فيه أصول  
الدرس الفلسفى الإسلامى ، بل اندثرت فيه كل أشكال الاجتهاد التاريخية  
المتولدة فى العصر الوسيط الإسلامى . وعاصرت فى الوقت نفسه مرحلة من  
مراحل تاريخ الفلسفة ، أنتجت فيه الفلسفة الأوروبية نزعات ومذاهب فلسفية ،  
مرتبطة بصيرورة تاريخية معرفية ، تميزت أساساً بمنعطفها الإمبريالى ، وبكل  
متطلبات هذا المنعطف التاريخى والفكرى ، مما أنتج فى نهاية التحليل كتابة  
فلسفية ملكت من الخصوصيات ما جعلها تتأرجح بين دوائر معرفية متعددة ،  
ودوائر عقائدية تاريخية متناقضة ، وأزمنة متباعدة فى الزمان والمكان ، (٧) فهل  
نستطيع إبراز حدود ومستويات هذه الكتابة ؟

## ٢ - الفلسفة السياسية : حدود ومستويات

تسمح لنا مراجعة النصوص الفكرية النهضوية ، بالتأكد من غياب الحديث الفلسفى فى صورته التى رسخها تاريخ الفلسفة إلى حدود القرن الثامن عشر . فنحن لا نعثر فى هذه الكتابة على حديث فلسفى نسقى منتج أو معدل أو مطور للمشكلات الميتافيزيقية الأساسية فى تاريخ الفلسفة ، كما أننا لا نستطيع أن نتبين فى النصوص المكتوبة فى الفترة موضوع هذه المساهمة ، أى محاورة جدية لتاريخ الفلسفة ، ففى النصوص التى نعترف لها بالطابع الفلسفى نواجه كثيراً من البياضات ، كثيراً من الفراغ الفلسفى إذا صح هذا التعبير . إلا أن هذا الفراغ لا يعنى الغياب الكلى لكل المعطيات الفكرية المرتبطة بالفلسفة وتاريخها .

فقد تبلورت فى الكتابة العربية المعاصرة قضايا فلسفية أخرى تنتمى إلى دائرة الفلسفة السياسية . ومنذ بدايات تشكل الوعى العربى المعاصر لاحظنا محاورة مستمرة للفلسفة السياسية الليبرالية ، فى أطروحاتها الكبرى ، ومفاهيمها الرئيسية ، كما لاحظنا المنحى التأويلى المتميز الذى اتخذته هذه المحاورة فى الفكر السياسى العربى المعاصر<sup>(٨)</sup>

ونحن نفسر غياب النسقية الميتافيزيقية ، وحضور نمط من الكتابة السياسية فى الفكر العربى ، بعامل سيادة فلسفة الأنوار والفلسفة السياسية ، والفلسفات التاريخية ، على تاريخ الفلسفة ، فى المرحلة التى تمت فيها عملية المثاقفة بين الفكر العربى والفلسفة الغربية<sup>(٩)</sup> ، كما نفسره بعامل سيادة التأخر والاستبداد فى مستوى الواقع التاريخى المؤطر لزمانية المثاقفة .

انتقلت إذن إلى مناخ الفكر المعاصر بعض مفاهيم المعتقد السياسى الليبرالى (العقل ، والحرية ، والدستور ، والمصلحة)<sup>(١٠)</sup>

كما انتقل مفهوم التقدم الأنوارى ، وتم التعرف على العقلانية فى صورتها الوضعية المتحمسة للعلم التجريبي<sup>(١١)</sup> ومن كل المصادر السابقة ، صاغ بعض المثقفين العرب ملامح رهيبة للقول الفلسفى فى الفكر العربى ، وقد تم ذلك فى غياب كلى لتقاليد الدرس الفلسفى من محيط الثقافة العربية . فلم تكن مثلاً فى المجتمعات العربية إذ ذاك مدارس ولا جامعات ترعى أصول الفلسفة وتاريخها ، بالإضافة إلى سيادة النهضة الوثوقية فى مجال الفكر ، حيث كانت الأفكار السائدة تكتفى بنظم الموروث ، ونقل القديم .

وما تريد أن تؤكد عليه هنا ، هو هيمنة السياسى على كل مظاهر القول الفلسفى الأخرى فى الكتابة العربية ، فإذا كان القول الفلسفى يعلن حضوره فى مظاهر قولية متعددة ، ويعنى اهتمامات فكرية لا حصر لها ، فإنه قد برز فى الفكر العربى وبشكل واضح فى مبحث السياسة والإصلاح السياسى .

لم تتمكن «رسالة التوحيد» لمحمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) من إنجاز مشروع علم كلام جديد فى الكتابة العربية المعاصرة ، ولم تتمكن ترجمة الشميل (١٨٥٠ - ١٩١٧) لمقالات بوختر فى فلسفة التشو والارتقاء ، ولا مواد مجلة «المقتطف» من دعم التوجه الفلسفى الوضعى فى نظرية المعرفة (١٢) . وذلك لأن نمو المعارف الفلسفية فى تاريخ الفلسفة يؤطره التاريخ العام لصراعاته المختلفة . كما تؤطره المعارف العلمية والثورات العلمية ، ونظراً لغياب المباحث العلمية من الثقافة العربية المعاصرة نظراً واختياراً ، فقد غابت المباحث والتأملات التى تدور فى فلك الإيستمولوجيا .

ويمكن أن نشير أيضاً فى نفس السياق إلى أن الحديث عن الرشدية مع فرح أنطون ومحمد عبده<sup>(١٣)</sup> ، والعناية اللاحقة بآبن خلدون داخل الأزهر ، ثم داخل الجامعات العربية ، لم يؤكد تجديداً فى النظر الفلسفى المحقق والمؤطر

لمصادر وأصول الفلسفة الإسلامية الوسيطة<sup>(١٤)</sup> ، وباستثناء الاهتمام الملحوظ بالنص السياسى الليبرالى ، والمفاهيم السياسية المحددة له ، من قبيل التسامح ، والحرية ، والعلمانية ، والتقدم<sup>(١٥)</sup> تظل كل الإشارات الأخرى ، المتعلقة بتاريخ الفلسفة ، عبارة عن محاولات فريدة ، محاولات لم تفتن فى سياق تطورى لاحق ، ولم تولد الاجتهاد الذى يغنى النظر ، ويساهم فى تطوير تاريخ الفلسفة<sup>(١٦)</sup> .

مسألة فلسفية أساسية هيمنت على نواحي القول الفلسفى الأخرى فى الفكر العربى هى المسألة السياسية ، رغم أن الكتابة العربية الناشئة داخل حدود هذه المسألة ، لم تتمكن من إدراك فعلها الذاتى بصورة نقدية .

لقد تشكلت المسألة السياسية فى الفكر العربى فى دائرة الإصلاح السياسى ، وداخل هذه الدائرة تم التسليم بأوليات السياسة الليبرالية ، بدون أدنى مسألة للمبادئ الكبرى النازمة لأصولها الفلسفية . لقد تركز البحث فى الجانب العملى المتعلق بالإصلاح السياسى دون أن تتاح للفكر فرصة إعادة إنتاج الأسس الفلسفية لليبرالية أو مجاوزتها . وهذا هو السبب الذى جعل المفاهيم السياسية الموظفة فى خطاب النهضة العربية بدون فلسفة سياسية ، أى بدون أدنى توسيع أو تعديل للأسس الفلسفة المشكلة للمعتقد الليبرالى .

نحن نستثنى هنا المساهمة الأولية التى دشنها على عبدالرازق (١٩٨٨) - (١٩٦٦) فى باب البحث فى «الإسلام وأصول الحكم» ، وتوضح فى الوقت نفسه كيف أن الفقر التأصيلى الذى يطبع الكتابة السياسية العربية لا ينفى عنها صفة إيجابية تتمثل فى كونها ساهمت فى بلورة لغة احتجاج جديدة فى الخطاب العربى المعاصر .

لقد ساهمت نصوص الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) وفرح أنطون (١٨٧٤ - ١٩٢٢) وأديب إسحاق (١٨٥٦ - ١٨٧١) ولطفى السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) فى

صياغة أكثر من تأويل للمفاهيم السياسية الليبرالية ، وإذا كنا قد أشرنا إلى الطابع العلمى الذى اكتسبته هذه النصوص فإن مرد ذلك يعود إلى متطلبات أحوال الوقت ، وشروط النظر المواقفة لهذه الأحوال ، والمساهمة فى تشكيل البنية النظرية لهذه النصوص <sup>(١٧)</sup> . فبواسطة هذه العوامل المشتركة نستطيع تفسير الانتقال من الفلسفة إلى السياسة ومن الفلسفة السياسية إلى الإصلاح السياسى ، وهو ما يعنى تقلص عمليات التأمل ، والتنتظير ، والمساواة ثم بناء الأنساق ، وطفغان آليات الدعوة ، ومقتضيات الإصلاح والتدبير العلمى . وقد نتج عن الآليات المذكورة سيادة النقل والعرض ، وتحويل المفاهيم إلى شعارات ، فاثمرت السياسة فى الخطاب العربى فى نهاية المطاف التعليقات الانتقالية ، الشروح التبسيطية ، والمماثلات العمياء ، ثم المفارقات النظرية الكبرى (١٨) .

هناك منزع أخر برز فى الكتابة الفلسفية فى عصر النهضة ، وقد غذى ومازال يغذى فى نظرننا التأملات الفلسفية العربية إلى يومنا هذا ، يتعلق الأمر ببدايات فلسفة حضارية عربية . ويعود سبب بروز هذا المنزع إلى لحظة التاريخ الكبرى المؤطرة لبنية الوعى العربى عموماً ، فقد كان للاستخدام التاريخى الحضارى بين الغرب والشرق ، بين أوربا الإمبريالية والعالم العربى المستعمر والتابع ، تأثير رهيب على الحساسية والعقل ، فنشأت مفاهيم الذات والهوية والأصالة ، وكان لهذه المنشأة بكل عنفوانها ورومانسيتها مبررات قوية فى المجتمع العربى . فمقابل الشعور بالدوانية أمام جبروت أوربا الإمبريالية ، تبلورت أزواج مفهومية حادة من قبيل الإسلام والنصرانية ، التسامح والاضطهاد ، التأخر والتقدم ، الخرافة والعلم ، القوة والضعف ، الأصالة والمعاصرة .. ورغم أن أغلب الكتابات المنشأة فى هذا الباب قد امتلأت بطفغان الحماسة التى لا تسعف بالتجريد النظرى الشمولى والنقدى ، فقد حاول أصحابها صياغة البيانات

والنصوص المحرصة على الفعل ، وقد كان وراء الفقر الفلسفى البارز فى هذه النصوص معاداة أغلب منتجبيها للفكر الفلسفى . (نحن نشير هنا إلى بعض كتابات الأفغانى ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، المتعلقة بالرد على دعاوى بعض المستشرقين الذين تناولوا بعض مراحل أو مظاهر الفكر الإسلامى بالدراسة والتحليل . ويمكن أن نضيف إلى كل ما سبق ملاحظة تتعلق بالحركات الاجتماعية والتربوية المهتمة بتحرير المرأة ، وتطوير أساليب التعليم ، وكذلك الحركات الأدبية واللغوية ، فنحن نعتقد أن وراء أغلب الحركات المذكورة فلسفات معلنة أحياناً ، ومضمرة أخرى (٢٠) . ويمكننا أن نتبين فى النصوص التى عبرت عن هذه الحركات ، اهتماماً بأعلام الفلسفة الوضعية من قبيل أوجسا كونت ، وهربت سبنسر ، كما يمكن أن نتبين إحالات إلى المرجعية الأنوارية ، والمرجعية الإسلامية السنية . إلا أن الأمر المؤكد فى هذا السياق هو أن الحركات التى ذكرنا لم تعتن بالتأصيل الفلسفى ، وقد ساهمت فعلاً كحركات معتمدة على نصوص فلسفية مستعارة من القرن التاسع عشر ، فى مباشرة تأثير متفاوت القيمة فى المجتمع العربى ، لكنها لم تتمكن من ترسيخ قواعد القول الفلسفى فى الكتابة العربية المعاصرة .

يتضح من كل ما سبق أن بؤرة القول الفلسفى فى خطاب النهضة العربية ، تركزت فى المستوى السياسى ، وبالضبط فى مستوى الدعوة السياسية والإصلاح السياسى ، وهو ما يعنى الركون إلى مقتضيات الممارسة السياسية ، والإهمال الواضح لمتطلبات النظر . قد يعلل الأمر بكون النخبة المثقفة فى العالم العربى ، تعرفت على الفلسفة السياسية الليبرالية فى القرن التاسع عشر ، وهو قرن لم يكن مهتما بصياغة أصول وأسس هذه الفلسفة (٢١) ، فقد ساهمت الفلسفات المتبلورة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى بلورة هذه الأصول ،

وقد كانت التيارات السياسية الليبرالية السائدة فى القرن التاسع عشر ، تسلم بتلك الأصول ، وتحاول تطوير القضايا العملية والتطبيقية ، فى مجال الممارسة السياسية الفعلية ، ومن هنا تأثر الكتاب العرب بالجوانب العملية فى هذه الفلسفة . ولا شك أن لهذا التفسير قيمته فى توضيح جانب من الشروط الموجهة للكتابة السياسية فى العالم العربى ، إلا أنه لا ينفى ولا يبعد الصبغة الأزدواجية الانتقائية ، والصبغة التبسيطية التى إتخذتها الفلسفة السياسية الليبرالية فى النص السياسى العربى . وذلك فى الوقت الذى كان فيه العقل العربى وما يزال فى حاجة ماسة إلى التأصيل الذى يسعفه بالبحث فى أصول القضايا وجذورها العميقة ليتمكن من بناء النظر المناسب لمقاصده .

### ٣ - الكاتب الفيلسوف

هناك زاوية أخرى ، تتيح لنا مقاربتها مزيداً من فهم مكانة الفلسفة فى الكتابة العربية المعاصرة ، وهى تتعلق بصورة الفيلسوف فى الفكر العربى المعاصر .

للفيلسوف كما هو معروف وضع خاص ومتميز فى تاريخ الفلسفة ، ورغم صعوبة إنجاز صورة نهائية ومغلقة عن الفيلسوف من خلال مراجعة تاريخ الفلسفة ، وخاصة بعد الوضع الخاص الذى عرفته هذه الصورة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ثم فى القرن العشرين ، فإن هذه الصورة ظلت متماسكة إلى حدود القرنين الأخيرين ، وانطلاقاً من هذا التماسك المقترض والذى تحدد عناصره فى المفكر المنتج لمنظومة فكرية ذات أسس نظرية محددة ، وجهاز مفاهيمى ، وسلسلة من الافتراضات والعمليات العقلية البرهانية ، انطلاقاً من هذا التصور سنحاول أن نفكر فى صورة المشتغل بالنص الفلسفى فى الثقافة العربية المعاصرة .



إننا لا نعثر على ما يماثل صورة أرسطو ، وديكارت ، وهوبز ، وكانط ، وهيجل ، فى دائرة المنتجين للفكر العربى المعاصر ، فأغلب الذين اهتموا بالقول الفلسفى فى الكتابة العربية منذ نهاية القرن الماضى ، وإلى حدود منتصف هذا القرن يندرج مجال اهتمامهم فى دائرة الأدب ، والصحافة ، والإصلاح السياسى، والتعليم . فالفيلسوف هنا مجرد أديب ، صحفى ، مصلح ومعلم ، وهو فى نهاية التحليل مجرد كاتب (٢٢) .

قلم يتمكن الشروط النظرية والتاريخية المؤطرة للإنتاج النظرى فى عصر النهضة ، من توليد النص الفلسفى العربى الفاعل فى تاريخ الفلسفة ، والفيلسوف المنتج لبناء فلسفى ، مستوعب ومطور لصيرورة نظام تاريخ الفلسفة . وتذكرنا صورة الكاتب الفيلسوف ، نموذج المشتغل بمجال القول الفلسفى فى الفكر العربى المعاصر ، بفلاسفة الأنوار الكتاب ، فقد أنتجت كتب هؤالء ، نمطاً جديداً من القول الفلسفى ، وهو نمط لم يشغل بالموضوعات التقليدية فى تاريخ الفلسفة ، بل اتجه نحو تدعيم ما يطور ويوسع دائرة البحث الفلسفى ، فقد ساهم فلاسفة الأنوار كما هو معروف فى تدعيم الأنثربولوجيا السياسية التى بلورتها الفلسفة السياسية الحديثة . كما حاولوا فى ضوء مقتضيات الصعود التاريخى للبرجوازية بلورة أطروحات متفائلة فى مجال التاريخ ، وذلك بدفاعهم عن العقل ، والتقدم ، وتقنيهم بالمساواة والتسامح ، وقد مهدت كتاباتهم بجانب عوامل أخرى سياسية وعلمية للفلسفة الوضعية ، والمنزغ التاريخى فى تاريخ الفلسفة كما رسمت شخصياتهم الفلسفية نموذجاً للفيلسوف الكاتب .

الكاتب الفيلسوف هو نموذج للفيلسوف الجديد فى القرن الثامن عشر : فولتير ، ديدرو ، روسو . ويمثل هذا الفيلسوف فى الفكر العربى كتاب أمثال فرح انطون ، وإطفى السيد ، وعلى عبدالرازق ، وقد كان هؤلاء الكتاب يستعيدون

بعض مفاهيم فلسفة الأنوار ، وبعض ملامح الفلسفة الوضعية . من أجل محاولة تفسير مظاهر التأخر العربى ، الثقافية والسياسية ، ومحاولة إصلاحها . ومن المؤكد أن قراءة الكتاب للنص الأنوارى ، والنص السيتسى الليبرالى ، وتشبع بعضهم ببعض مبادئ الفلسفة الوضعية ، لم ينتج البناء النظرى المطابق لتاريخه الذاتى ، ولم تتمكن من نحت مفاهيم جديدة ، وظلت فى الأغلب الأهم ، مجرد رجوع صدئ ، شرحاً على الشرح ، نسخاً لنموذج ، وتبسيطاً لأصل . إلا أن هذه المسألة يجب ألا تفهم فى نظرنا فى ذاتها ، أو تفهم باعتبارها قصوراً ذاتياً فى الكاتب الفيلسوف ، وفى النص الذى أنتجه ، بل علينا محاولة فهمها عن طريق ربطها بشروطها العامة ، الشروط التاريخية والنظرية التى واكبت عملية تولدها العسير فى الثقافة العربية .

\* \* \*

أتاحت لنا المحاور السابقة ، حصر مرجعيات القول الفلسفى فى الكتابة العربية المعاصرة ، كما أتاحت لنا معرفة المجال النظرى الذى تركز فيه هذا القول ، حيث وضحتنا مستويات التداخل والتمايز بين الفلسفى والسياسى فى خطاب النهضة ، وحاولنا إبراز محدودية الحضور الفلسفى العربى فى تاريخ الفلسفة فى الزمن الذى اعتدنا تسميته «عصر النهضة» .

فلم تشارك الكتابة العربية النهضة فى التأصيل الفلسفى الخلاق ، لقد اكتفت النصوص المنتمية إلى دائرة القول الفلسفى السياسى باستدعاء أطروحات الليبرالية ، ومفاهيمها دون أن تتمكن من إخصابها بمحاورتها . ولم يتمكن الكاتب الداعية من قراءة تاريخ الفلسفة فى ضوء المغايرة التاريخية ، لم يمتلك فضيلة النظر ، رغم امتلاكه فى أغلب ما كتب لحماسة الداعية المتتور .

## الهوامش :

- ١ - نحن نشير هنا بالضبط إلى التنوع الذي عرفه مجال البحث الفلسفي في الفكر الغربي المعاصر ، وخاصة بعد المساهمات الفلسفية الكبرى لكل من ليفي ستروس وميشال فوكو وغيرهما من أعلام الفلسفة المعاصرة ، حيث يمكن ملاحظة الكيفية التي اتسعت بها حدود الممارسة النظرية الفلسفية في أعمالها ، سواء في مستويات مجال البحث ، أو في مستوى نمط الكتابة التي نظمت هذه المستويات .
- ٢ - لقد حاولنا وضع وصياغة هذه الأولية لثلح بواسطتها بالدرجة الأولى على عملية استرجاع المفهوم والمصطلح الفلسفي الإسلامي في كثير من الكتابات التي تبلورت في عصر النهضة العربية . فقد استعان المثقفون العرب المعاصرون بكثير من المفاهيم والصيغ التعبيرية المؤسسة في دائرة الفلسفة الإسلامية الوسيطية ، ومن أجل الإطلاع على عينة من هذا الاسترجاع يمكن الرجوع إلى دراسة مصطلحة اهتمت برصد حضور المصطلح السياسي الوسيط في الفكر العربي المعاصر : أحمد عبدالسلام : دراسات في مصطلح السياسة عند العرب ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ١٩٧٨ .
- ٣ - راجع توضيحات نقدية عن هذه المسألة في كتابنا «التأويل والمفارقة» ص ٩ ، ٤٩ المركز الثقافي العربي ، بيروت ١٩٨٧ .
- ٤ - محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي . ص ٢٢٠ - ٢٥٢ دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٤ .
- ٥ - نعتد في ترتيبنا لأهم التيارات الفلسفية التي انتقلت إلى الفكر العربي في عصر النهضة على نقص لأهم الإشارات التي عثرنا عليها في النصوص النهضة الأولى التي أعتنت بشكل أو بآخر بالفلسفة ، بنصوصها ورموزها وقضاياها .
- ٦ - تتجلى هذه المسألة بشكل خاص في كتابة فرح أنطون وخاصة في بعض رموده على محمد عبده أثناء السجال الذي دار بينهما حول مسألة «الاضطهاد في الإسلام والمسيحية» وذلك على صفحات مجلة «الجامعة» و«المنار» . يمكن الرجوع إلى هذه الردود في الجزء الثاني من الأعمال الكاملة لفرح أنطون ص ٩٧ دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١ .
- ٧ - عبدالله العدوي ، مفهوم الحرية . ص ٤١-٤٢ المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ١٩٨١ .

- ٨ - التّأويل والمفارقة ص ٣٧-٤٦ (مرجع مذكور) .
- ٩ - قد يكون من بين عوامل غياب المباحث الميتافيزيقية فى الكتابة الفلسفية العربية الانحسار الذى عرفته نفس المباحث فى تاريخ الفلسفة الغربية نتيجة للانتقادات التى وجهتها الفلسفة الوضعية والفلسفة الماركسية والفلسفات التحليلية للميتافيزيقا، ولكل المباحث التقليدية فى تاريخ الفلسفة .
- ١٠ - راجع فرح أنطون ، ابن رشد وفلسفته ، ص ١٤٤-١٥٠ (مرجع مذكور) .
- ١١ - أنظر ملحق كتاب شبلى الشميل ، فلسفة النشوء والارتقاء مصر ١٩١٠ .
- ١٢ - يمكن التاكّد من صعوبة بناء «نظرية فى المعرفة» عند شبلى الشميل من خلال مراجعة مقالة «نظرية المعرفة لدى شبلى الشميل لأحمد ماضى ، وهى منشورة فى مجلة الفكر العربى المعاصر ، ص ٨٨-٩٥ ع ١٦-١٩٨١ .
- ١٣ - نقصد هنا بالذات كتاب فرح أنطون ابن رشد وفلسفته (مرجع مذكور) .
- ١٤ - نلاحظ فى فترة لاحقة اهتماماً مكثفاً بالخلدونية فى مستوى إعداد أطروحات أكاديمية حول المقدمة والتاريخ ، ولهذا المسألة أكثر من دلالة .
- ١٥ - يمكن العثور على صياغات مختلفة لهذه المفاهيم فى النصوص الآتية :  
أديب إسحاق ، الكتابات السياسية والاجتماعية ، جمع وتحقيق ناجى علوش دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٨ .  
فرح أنطون ، ابن رشد وفلسفته ضمن مجموع الأعمال الفلسفية دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١ لطفى السيد ، مبادئ فى السياسة والأدب والاجتماع - القاهرة دار الهلال ١٩٦٣ .  
على عبدالرازق ، الإسلام وأصول الحكم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٢ .  
سلامة موسى ، مختارات سلامة موسى ، مكتبة المعارف ط ٣ بيروت ١٩٧٤ .
- ١٦ - راجع متابعتنا لتطور استعمال مفهوم العلمانية فى الخطاب السياسى العربى «التأويل والمفارقة» ص ٧٧-١٠٨ (مرجع مذكور) .
- ١٧ - لا يعنى الإقرار المذكور أننا نتصور علاقة حتمية بين التاريخ والنظر ، بقدر ما يعنى الاعتراف بتاريخية النظر ، هذا الاعتراف الذى يسلم بمحاياة الأفكار للتاريخ ، كما يسلم بتعدد مستويات العلاقة الكائنة والممكنة بين الأفكار والتاريخ .

١٨ - أنظر على أواميل : الإصلاحية العربية والدولة الوطنية ، ص ٨٧-١٠٦ المركز الثقافي العربي ، بيروت ١٩٨٥ .

١٩ - تتضح هذه المسألة في نص الأفغانى رسالة الرد على الدهريين ضمن مجموع الأعمال الكاملة ص ١٢٧-١٧٤ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٣ . وكذلك رده الكامل على أرنست رينان وهو تحت عنوان «الإسلام والعلم» وقد نشره محققاً على شلش في مجلة «الأزمة» ص ٦٦.٦٣ المجد الأول العدد السادس ١٩٨٧ .

٢٠ - نحن هنا نشير إلى مسألة لم تتل بعد عناية من طرف المهتمين بالكتابة العربية المعاصرة ، ويتعلق الأمر بمحاولة تركيب وإعادة بناء المبادئ الفلسفية التي تقف وراء الحركات التربوية ، والاجتماعية واللغوية في فكر النهضة العربية .

٢١ - عبدالله العروى : مفهوم الحرية ، ص ٥٢ (مرجع مذكور) .

٢٢ - راجع دراسة هشام جعيط ، فلسفة التنوير والفكر العربى الإسلامى ، مجلة الفكر العربى المعاصر ، ص ٢٠-٢٧ ع ١٩٨٦/٣٧ .



## **٢ - الفلسفة العربية المعاصرة**

### **مسار وإشكال**





## مقدمة

إن عنوان هذا البحث : «الفلسفة العربية المعاصرة مسار وإشكال» أوسع بكثير من محتوى وشكل هذه المساهمة ، يعود سبب ذلك إلى أن الإحاطة بواقع ومعضلات الفكر الفلسفى العربى المعاصر ، تتطلب مجهودات جماعية ، ومن هنا فإن هذه المحاولة لا تسعى إلى تحديد جوانب وأشكال الحضور الفلسفى فى الفكر العربى المعاصر ، ولا إلى تقصى هذه الجوانب والأشكال فى مستواهما التاريخى والنظرى ، بقدر ما ترمى إلى صياغة تأملات أولية حول وضعية الممارسة الفلسفية العربية المعاصرة ، فى علاقتها بأبرز التيارات الفلسفية الغربية .

تنطلق هذه التأملات من تحديد أولى لماهية الإنتاج النظرى الفلسفى ، كما تقتنع بتصوير معين لتاريخية هذا الإنتاج .

فالممارسة النظرية الفلسفية تتحدد فى نظرنا كمجهود فكرى متميز بقضاياها ، ومفاهيمه ، وحقل تأملاته . وهو مجهود يضيف إلى المجهودات الفكرية البشرية الأخرى إطاراً لصياغة إشكاليات خاصة ، وقد حدد هذا الإنتاج منذ بنائه لتاريخه ، مجال التنظير الشمولى النقدى كطريق مميز لتاريخه وصيرورته .

الخطاب الفلسفى إذن لوعوس ذاته ، بالإضافة إلى تفاعله الحتمى مع التاريخ ، أما الخطاب الدينى - وهو فى نظرنا نقىض مباشر للخطاب الفلسفى - فإنه بتأسيسه لشموليته على مبدأ لوخى ، يلغى مبدأ إعادة

الصياغة والبناء والتفاعل التاريخي إلا في مستوى الشرح والتأويل ، وذلك لأن بنية الوحي تقف خارج الزمان في الوقت الذي تنتظر فيه لما هو زمني . لا يمكن أن تفهم الممارسة الفلسفية في تقديرنا بمعزل عن التاريخ ، عن الصراع التاريخي ، المتنوع والمتجدد ، وهذا يعني أن الاجتماعي السياسي / الفلسفي لا ينفصلان ، إلا أن هذا التأكيد لا يعني أنهما يتماثلان . لقد أصبح من الواضح اليوم انطلاقاً من أمال كل من لوسيان غولدمان والتوسير <sup>(١)</sup> ، على سبيل المثال ، أن زمانية الوعي الفلسفي تملك من الخصوصيات ما يجعلها تتقدم أو تتأخر في بعض المراحل التاريخي عن زمانية التاريخي ، إلا أن الاستقلال النسبي لزمانية ومفاهيم الفكر الفلسفي عن التاريخ ، لاتعني أبداً خارجية الفكر الفلسفي عن التاريخ . إذ من المؤكد أن أفلاطون يلهمنا جميعاً ، رغم أن المسافة الزمانية بيننا وبينه تزداد كل يوم إتساعاً ، ولكن من المؤكد قبل ذلك أن زمانية التاريخ بلا حدود ، وأن كل تحقيب لها يبقى دائماً مجرداً ومحدوداً ... إننا نؤمن قبل هذا بأنه لا فكر فوق التاريخ أو خارج التاريخ ، والفلسفة في هذا الإطار لا تشكل أي استثناء ، إنها حادثة تاريخية .

نريد أن نشير في هذه المقدمة إلى مسألة منهجية ، تتعلق بكون محاولتنا تتجه نحو رصد نماذج من أشكال الممارسة الفلسفية في الفكر العربي المعاصر ، ونستثنى الفكر الفلسفي الماركسي ، والتيارات الفكرية الاشتراكية التي تدور في فلكه ، وذلك لسببين اثنين :

١ - صغوية الإلمام بمختلف أوجه الحضور الفلسفي الماركسي في الفكر العربي المعاصر ، في الوقت الراهن على الأقل .

٢ - خصوصية هذا الحضور ، وسعى ممثليه لبلورة أفكاره في تجارب سياسية تاريخية (تجارب وأطروحات المجموعات الماركسية والاشتراكية في الوطن العربي) .

إن حصر هذا الحضور ، ووصفه ، والمساهمة فى تحليله ، أمر يتجاوز حدود إمكاناتنا الراهنة ، ومن هنا فإن حديثنا عن الفلسفة فى العالم العربى اليوم سيعتمد فى الأساس على محاولة رصد التيارات الفلسفية غير الماركسية .

## تتمحور تأملاتنا حول القضايا الآتية :

١ - النزعة التوفيقية : تجربة التوتر والإخفاق .

٢ - التبعية العمياء ، وهم الاستقلال الفلسفى .

٣ - نحو قراءة تاريخية ونقدية لتاريخ الفلسفة .

## أولاً : النزعة التوفيقية : تجربة التوتر والإخفاق

أولاً : - لا نستطيع فهم طبيعة الحضور الفلسفى فى الفكر العربى المعاصر ، بمعزل عن الشروط التاريخية المؤطرة له ، إن هذه البديهة تسمح لنا بفحص شروط الممارسة الفلسفية فى الثقافة العربية المعاصرة ، وذلك انطلاقاً من مؤشرين اثنين : -

- أولهما : الظاهرة الإمبريالية ومستلزماتها التاريخية والفكرية .

- وثانيهما : استمرار تخلف الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية العربية ، وهيمنة الرؤية اللاهوتية باعتبارها الرؤية الموجهة والمحددة للتعامل النظرى مع الطبيعة والتاريخ .

إن هذين المؤشرين يفسران فى نظرنا جوانب من الحضور الفلسفى فى الثقافة العربية المعاصرة ، إنهما يفسران تجربة التوتر وتجربة الإخفاق ، وذلك باعتبارهما حالتين ملازمتين للإنتاج الفلسفى العربى المعاصر .

إن هيمنة الرؤية الفكرية اللاهوتية كبنية فوقية ملتزمة بالتاريخ العربى ، منذ زمن النبوة والشعر ، يجعل الممارسة الفلسفية فى أفقها المتنور والتنويرى غائبة ، أو حاضرة فى صورة موقف يسعى إما إلى تبرير مشروعيته ، وإما إلى دمج اللوغس فى الوحى ، إن هذه المسألة لا تتعلق بعصورنا الوسطى وحدها ، بل تتعلق أيضا بإحضرنا حيث يستمر صدق فتوى ابن الصلاح (٢) ، القاضى بتكفير الفلاسفة والمبشر بأسبقية اللاهوتى على كل فاعلية بشرية .

أما المحدد الأول المتعلق بالظاهرة الإمبريالية ، فقد وضع أسس الكونية الغربية كعلامة ملازمة للحاضر والمستقبل ، وذلك بحكم تسليح الحضارة التى تقف وراء اللحظة الإمبريالية بأسلحة العقل والتقنية ، ومغامرة الإنسان فى التاريخ .

لا مفر إذن من تسجيل غياب أو انقطاع الممارسة الفلسفية طويلاً عن المحيط الإنتاج الثقافى العربى المعاصر ، ولا مفر من تسجيل حتمية الصراع والتناقض بين قيم الفكر اللاهوتى المهيمن «الميتافيزيقيا الدينية» التصور الدينى للسلطة الخ .. ) وبين القيم التى حملها الغرب فى مرحلته الإمبريالية ، ثم فى المراحل اللاحقة لذلك ( من المعروف أن الغرب ليس واحداً ، وأنه لا يتحدد مثلاً بهيمته الاقتصادية والسياسة فقط ، بل إنه يتحدد أيضاً بقيم تتجاوز ، ومنها الطموح البشرى العقلانى ، تمجيد الإنسان ، القدرة على توجيه التاريخ .. )

أولاً - يعثر الباحث فى طبيعة وأشكال الممارسة الفلسفية العربية المعاصرة ، على محاولة تصنيفية للأستاذ جميل صليبا (٣) حدد فيها التيارات الفلسفية العربية المعاصرة ، بالصورة الآتية :

١ - الإتجاه المادى الظاهر فى فلسفة شبلى الشميل .

٢ - الإتجاه العقلى البارز فى فلسفة محمد عبده ويوسف كرم .

٣ - الإتجاه الروحي البادى فى وجدانية العقاد وجوانية عثمان أمين .

٤ - الإتجاه التكاملى فى آراء يوسف مراد .

٥ - الإتجاه الشخصانى فى كتب حبشى ، ومحمد عزيز الحبابى .

٦ - الإتجاه الوجدى فى آراء عبدالرحمن بدوى .

٧ - الإتجاه العلمى فى كتابات يعقوب صروف وإسماعيل مظهر وغيرهما

لا يحدد هذا التصنيف حتى فى المستوى الوصفى كل أشكال الحضور  
الفلسفى فى الثقافة العربية المعاصرة ، كما أنه لا يشير إلى الملامسات النظرية  
والتاريخية التى يثيرها هذا الحضور ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه لا يفسر ظاهرة  
غياب الإبداع الفلسفى فى الفكر العربى المعاصر .

وما دام الأمر يتعلق برصد ظاهرة الحضور والغياب (حضور بعض  
التيارات / غياب الإبداع الفلسفى ) فإننا نستطيع أن نضيف إلى الإتجاهات  
التي أشار إليها الوصف التخطيطى السابق مايلى :

- التيار الهيجلى : ظهر فى مرحلة متقدمة بالمقارنة مع مرحلة انتقال  
التيارات الفلسفية الأخرى إلى العالم العربى حيث باشر على العنانى إعلان  
انتمائه للهيجلية (ه) ، كما نشر مجاهد عبد المنعم مجاهد فى وقت لاحق ،  
وبالضبط فى الستينات ، ومن خلال منبر الآداب مجموعة من المقالات دعا فيها  
إلى الهيجلية باعتبارها موطن المعاصرة الحقة .

- الديكارتية : وقد عرف جانيتها المنهجى تقديراً خاصاً عند بعض  
المثقفين فى الربع الأول من القرن العشرين فى مصر حيث أول هذا المنهج

بطريقة خاصة ، واستعمل كأداة لتحليل جوانب من تراثنا بما يسمح بإعادة النظر فى بعض الثوابت والمتغيرات فى التراث العربى ( المقصود هنا طه حسين ومسألة الشعر الجاهلى ) .

- البرجماتية : وقد تبلورت أساساً فى مواقف سياسية مباشرة حيث ترجم المبشرون بها عداهم الصريح للفكر الاشتراكى ، ويمكن اعتبار أن الصحافة المصرية الحالية ومجلة «السياسة الدولية» القاهرية يباشران نشر مبادئ الممارسة النظرية البرجماتية ، وأن الشعارات الحالية للانفتاح فى مصر تتبنى بصورة أخرى الرؤية البرجماتية فى الاقتصاد والسياسة ، ( نحن هنا نتحدث أساساً عن زمن السادات ) .

يتناسى التصنيف أيضاً الفلسفة الماركسية والتيارات الفكرية الاشتراكية (٦) وهو لا يشير طبعاً إلى التيارات التى عرقها محيط الثقافة الفلسفية المعاصرة ، بعد زمن البحث مثل الماركوزية والبنوية بمختلف تياراتها الخ ..

٣ - إن حضور هذه التيارات لا يدفعنا إلى القول بانتشار الوعي الفلسفى ، أو الممارسة الفلسفية فى محيط الثقافة العربية المعاصرة ، بل إن هذا الحضور لا يفهم إلا ضمن أفق التبعية باعتبار أنها النتيجة المترتبة عن الشرطين سابقى الذكر ، أى الزمن الإمبريالى ، وزمن سيادة التقليد الفكرى العربى ، إن الشرط الثانى لا يبيح المغامرة الفلسفية ، والدهشة الفلسفية والمعاناة الفلسفية إلا ضمن أفق اللاهوت ، حيث لا يمكن أن يتأسس إلا خطاب توفيقى معبر عن قوة حضور الإيستى الإسلامى أما الزمن الإمبريالى ، فإن هيمنته الاقتصادية تحتم الاحتماء بقيمه ورؤيته الفلسفية ، وهذا هو سر الخطاب الفلسفى التابع والمقلد .

ينتعش إذن في الحقل الفلسفي العربي المعاصر ، الخطاب الفلسفي التوفيقى من جهة ، والخطاب الفلسفي التابع من جهة ثانية ، ويؤسس هذان الخطابان ممارسات فلسفية تابعة لهما تتجلى في التلخيص والعرض ، كما يؤسسان ردود فعل خاصة تؤطر المشتغلين بحقل الفكر الفلسفي في العالم العربي ، ويتعلق الأمر بظاهرتي التناقض في المواقف ، والتراجع عن المبادئ .

نقصد بذلك أن فحص هذين الشكلين من أشكال الممارسة النظرية الفلسفية ، يؤدي إلى إنتاج ممارسة نظرية مليئة بالمتناقضات (٧) ، بالإضافة إلى بروز ظاهرة تتكرر بصورة غريبة في الفكر العربي وهي ظاهرة التراجع ، حيث نجد أن أغلب المشتغلين بالدراسات الفلسفية ينادون في مرحلة من نشاطهم الفكرى بمبادئ نقدية ، ثم يتراجعون عنها في مرحلة لاحقة أما التلخيص والتقديم ، ونقصد بهما عرض وشرح النظريات الفلسفية ، فإنه الصورة البارزة في المكتبة الفلسفية العربية المعاصرة ، (نقصد هنا ما كتب عن أفلاطون وديكارت وكانط الخ ..)

لا تفهم هذه الأساليب في التعامل مع دروس تاريخ الفلسفة ، إلا باعتبارها أنوات دفاعية ، حيث لا موطن ولا مكان للفكر الفلسفي المبدع ، إلا عندما يحتفى بإحدى هذه الوسائل ، مبرراً مشروعيتها ، وصلاحيته وجوده ، واستمراره ، إن هذا ما يحدد بكثير من العمق ، محنة ويؤس وهامشية الفكر الفلسفي ، في محيط الثقافة العربية المعاصرة .

لكي نتجنب التعميم سنحاول إعطاء بعض الأمثلة لشرح هامشية الممارسة الفلسفية العربية المعاصرة ، وصور انتقائيتها ، وليكن المثال الأول الشخصية الإسلامية الواقعية - هذا هو اسمها الكامل لمحمد عزيز الحبابي .

يشعر قارئ مؤلفات الأستاذ محمد عزيز الحبابي (٨) بصدى التيار الفلسفي الذي ينطلق منه وهو شخصانية (مونيائي) والتوجيه الفكري لجماعة مجلة الفكر في الثلاثينات ، كما يشعر بالمنحى الكلامي الإسلامي ممتزجاً بمبادئ ومقدمات الفكر السابق الذكر ..

لقد سعى فيلسوفنا جاهداً لإحياء علم الكلام ، ويلور هذا السعى في محاولة فهم الشهادة الإسلامية فهماً فلسفياً ، إلا أن محاولته تحدت في النهاية من خلال مفاهيم مستعارة من رواد الشخصانية الغربية ، مفاهيم أدت به إلى صياغة علم كلام جديد ممزوج بكانطية مؤولة بصورة منقرة .

توحى أدبيات الحبابي بقدرة غريبة على الربط بين عناصر نظرية لا رابط بينها ، إنها نموذج للإنتقائية الفكرية في أجلى صورها ، والتدليل على ما نقول يمكن أن نراجع مصادر كتاب «من الكائن إلى الشخص» حيث نجده يذكر الأسماء الآتية : هيجل ، ماركس ، كيركجارد ، موني (٩) وهو يعرض آراء هؤلاء المفكرين ويحاول أثناء عرضه بلورة رؤيته الفلسفية .

يشعر القارئ أيضاً بغياب التعامل التاريخي مع التراث الفلسفي في مؤلفات الأستاذ محمد عزيز الحبابي ، فهو يقارن ويمثل في صفحة واحدة بين أفكار متناقضة بالإضافة إلى انتمائها إلى أزمنة متباعدة (١٠) .

إن مؤلفات الأستاذ الحبابي لا يمكن وصفها بالهامشية فقط ، بل إنها درجة أعلى من الهامشية ، إنها مؤلفات غريبة عن الواقع الذي يؤطر وجودها ، وتأتي غربتها من استماعها لنداء الفكر الباهت في الفلسفة الغربية ، ومحاولة ترجمته بصورة تلقيفية ممزوجة بمعطيات نظرية إسلامية ، مؤولة بدون عقد يقينية ، إن الحبابي إذن يستمع لنداء الماضي ، كما يستمع للباحث في تراث الآخر ، أما الآن ، أما الحاضر ، فإنهما يحتلان مرتبة دنيا في مجال إنتاجه .



٤ - هناك مثال آخر نريد عن طريقه إبراز البعد التوفيقي في الإنتاج النظرى الفلسفى العربى المعاصر ، وهو الفلسفة الوجودية ، فقد انتقلت هذه الفلسفة إلى محيط الثقافة العربية بصخب ، يتجاوز صورة الممارسة الفلسفية الحبابية ، إن تعامل المثقفين العرب مع الوجودية نموذج واضح للتعامل الإنجذابى التاريخى ، وقد تجلّى هذا التعامل فى ترجمات مجلة الآداب ودار الآداب لأعمال رواد الفلسفة الوجودية ، وخاصة سارتر ، وقد ساهم كل من عبد الرحمن بدوى وزكريا إبراهيم فى ترجمة المفاهيم الوجودية والتبشير بها من خلال منابر ثقافية متعددة فى الشرق العربى ، أهمها المجلات والجامعات المصرية .

وقد استجاب جيل من المثقفين من متعلمى الفلسفة فى الخمسينات والستينات ، لانداءات الأدبيات الوجودية ، وانعكست آثار ذلك فى مؤلفات فلسفية متعددة ، كما تجلت نتائجه أيضاً فى حفل الممارسة الأدبية الخالصة ، حيث ظهرت مجموعات قصصية وروايات تعامل أبطالها الواقعيون والمتخيلون بمفاهيم تجربة الوجود وقلق المصير ، حالمين بتقصص شخصية ماتيو بطل ثلاثية «دروب الحرية» لسارتر .

لقد برز البعد التوفيقي فى الفلسفة الوجودية كمحاولة للتخلص من صورة التبعية ، حيث سعى بدوى إلى تأصيل زمانه الوجودى (١١) محاولاً البحث عن جذور عربية لوجوديته ، ومبرراً فى الوقت نفسه جدارة وأصالة مذهبه الفلسفى ، وانطلاقاً من هذا كتب عن الشخصيات القلقة فى الإسلام ، مستعرضاً شطحات المتصوفة المسلمين ، كما عرّف برواد الفكر الوجودى بطريقة امتزج فيها العرض بالتمثل والإسقاط (١٢) إلا أن عبد الرحمن بدوى يعود بعد ممارسة فلسفية طويلة ، وإنتاج وافر (١٣) إلى تحقيق ونشر التراث الإسلامى ، ولعلها

أعظم نهاية يمكن أن يحلم بها وجودى عربى مثل الأستاذ بدوى ومن هنا فإن مصير الوجودية فى الفكر الفلسفى العربى المعاصر لم يكن شاذاً ، لقد اختلفت أنفاس الفكر الوجودى ، وتراجع دعائه عن مبادئهم ثم اشتغلوا بمجالات نظرية أخرى ، وهو أمر لم يسمح لهم ، لا بنقل الوجودية ولا بإبداع وجودية عربية مطابقة للحال والمآل العربيين .

## ثانياً : التبعية العمياء ووهم الاستقلال الفلسفى :

إن الحديث عن التبعية فى الفكر الفلسفى يعنى أساساً التأكيد على انتقاء المجادلة والحوار ، إن الخطاب الفلسفى التابع ، خطاب مماثل للخطاب التوفيقى المستند إلى الماضى والمحكوم بنمط الرؤية السلفية ، إنه لا ينتج فى النهاية إلا ممارسة عمياء .

وسنحاول فى هذا المحور استعراض نماذج من الفكر الفلسفى التابع ، فى الفكر العربى المعاصر ، ويتعلق الأمر بالنزعة الوضعية والنزعة الألتوسيرية ، كما سنحاول مناقشة الدعوة إلى الاستقلال الفلسفى التى يدافع عنها ناصف نصار .

١ - تشكل الفلسفة الوضعية كما نقلها زكى نجيب محمود (١٤) نموذجاً للتيار الفلسفى التابع ، لقد نقل هذا الأخير مبادئ الفلسفة الوضعية فى صورتها المبسطة ، محاولاً التبشير بقيم الفكر الوضعى فى مناخ فكرى تسود فيه الرؤية اللاهوتية ، لأنه لم يتساءل مطلقاً عن الشروط التاريخية والنظرية المهيئة لتبلور الفكر الوضعى ، لقد كان وفياً لمبادئ الفلسفة الوضعية ، ولم يكن وفياً لمتطلبات مجتمعه النظرية والتاريخية .

وإذا كانت الفلسفة التى نقلها زكى نجيب محمود تستجيب لمنجزات العلم فإنها قد حددت فى سياق تاريخ الفلسفة زمن تبلورها كفلسفة إيجابية ، وهى

عندما تنتقل إلى محيط الثقافة العربية من خلال عرض وتلخيص مبادئها وأسسها ، لاتتجزأ أى ممارسة ثقافية فعالة ، إنها لم تقم مثلاً بتحليل لغة الخطاب الدينى السائد لتنتحية ميتافيزيقا اللاهوت ، وأن غياب هذا الأمر ليشعرنا بأن ظروفنا أعمق من ذاتية المفكر تحدد العائق الحقيقى لغياب مثل هذه الممارسة .

إن الفلسفة الوضعية فى العالم العربى لم تتجزأ مهمة تاريخية ، إنها لم تقدم حلاً نظرياً لمشاكل واضحة ، قدر ما عبرت عن شغف فكرى بتراث الغرب ، ومن هنا فقد لحقتها أعراض التيارات الفلسفية السابقة : الهامشية ، الغربية ، انعدام التأثير فى الفكر والواقع ، بل أكثر من ذلك لقد شاهدنا فى السنوات الأخيرة تراجع ناقلها عن مبادئ الفكر الوضعى ، يقول زكى نجيب محمود :

« لم تكن قد أتيحت لكاتب هذه الصفحات فى معظم أعوامه الماضية فرصة طويلة الأمد تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربى على مهل ، فهو واحد من ألوف المثقفين العرب الذين فتحت عيونهم على فكر أوربى ( ..... )

وابتث هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعواماً بعد أعوام الفكر الأوربى دراسته وهو طالب ، والفكر الأوربى تدريسه وهو أستاذ ( ... ) ثم أخذته فى أعوامه الأخيرة صحوة قلقة استيقظ كاتب هذه الصفحات بعد أن فات أو أوشك ، فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه ، فطلق فى بضعة الأعوام الأخيرة التى قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية يزدرد تراث آبائه .. » ( ١٥ )

هذه النغمة الصحفية الحزينة التى يبتدىء بها زكى نجيب محمود كتابه «تجديد الفكر العربى» تدل دلالة قاطعة على ما حددناه فى السابق من صفات للممارسة الفلسفية العربية المعاصرة ، التخلص ، والنقل والتراجع ... تراجع

زكى نجيب محمود عن مبادئ الفلسفة الوضعية ، وأصبح موقفه الراهن يتضمن تراجعاً عن مبادئ الماضى ، تراجعاً يُبرز فى نظرنا استمرار سيادة وهيمنة التقاليد الفكرية الوسطوية وسيادة التعامل اللاتارىخى مع تاريخ الفلسفة ...

## ثانيا : ٢ - الظاهرة الألتوسيرية فى المغرب :

برز فى أفق الفكر الفلسفى فى السنوات الأخيرة بالمغرب اهتمام خاص بالفكر الألتوسيرى (١٦) وإذا كانت هذه الظاهرة تعكس مبدئياً وضعاً إيجابياً حيث تبرز درجة متابعة المهتمين بالفكر الفلسفى فى بلادنا للإنتاج الفلسفى الغربى - الفرنسى خاصة - فإنها تطرح مشاكل نظرية متعددة ، مثلاً ألا يمكن اعتبار أن حالة الاهتمام بالألتوسيرية اليوم لا تختلف عن الاهتمام بالماركوزية بالأمس ، والوجودية فى الستينات ؟ ألا يعنى هذا أننا لم نكتشف بعد أسلوب تعاملنا مع الإنتاج النظرى الفلسفى ؟ كيف نفسر ظاهرة التعامل المؤقت مع مستحدثات الفكر الغربى ؟ أو كيف نفسر الانجذاب السريع ، والنسيان السريع ؟ لماذا نكتفى عند عرضنا وتقديمنا للألتوسيرية بتخليصها ، وتفكيك مفاهيمها بدون أى حوار ، أو استفادة فعلية ، تجعلنا نوظف مثلاً طريقة تعاملها مع الفكر الماركسى ، أو نستفيد من جهازها المفاهيمى أثناء معالجتنا لقضايانا النظرية ، لماذا تظل قراءتنا لتاريخ الفلسفة تابعة مكثفية بالتقديم والتلخيص ، ثم قبل ذلك لمن نقدم الألتوسيرية ؟ إن هذه الأسئلة ليست مجانية ، إننا لا نؤمن بمجانية أى ممارسة فكرية ، والفلسفة - كما حدد ذلك ألتوسير نفسه - « صراع طبقى على مستوى النظرية » فكيف نغفل أبجدية الدرس الألتوسيرى ؟ إن هذه الظاهرة تبرز من جديد عدم قدرتنا على التخلص من التعلق الانفعالى بإنتاج العرب الفلسفى ( المقصود بالغرب هنا ، المدرسة الفرنسية ) .

ثانياً ٣ - أن التبعية فى الفلسفة لا يمكن تجاوزها بالمناداة بشعار «الاستقلال الفلسفى» كما فعل ناصف نصار فى كتابه : « طريق الاستقلال الفلسفى » (١٧) فقد حاول فى هذا الكتاب بلورة موقف نقدى مواجه للمواقف الفلسفية العربية التابعة ، كما حاول صياغة مبادئ لتعامل مستقل عن تاريخ الفلسفة الغربية ، وذلك من أجل الإبداع والحرية ، كما ينص على ذلك العنوان الفرعى للكتاب .

يلمس قارئ هذا الكتاب جدية كاتبه فى الدعوة إلى الاستقلال الفلسفى ، إلا أن هذه الدعوة لا تمثل فى نظرنا إلا رد فعل تبسيطياً لمسألة الإبداع فى الفلسفة .

لا يلتزم ناصيف نصار بموقف دقيق حول مسألة معنى الاستقلال الفلسفى ، وكيفية تحقيقه ، وتظل فقرات الكتاب المتعلقة بهذه المسألة مترددة بين حديث يدعو إلى الإبداع المنطلق من التجاوب مع التاريخ الخاص ، والإبداع الذى لا يتناسى وحدة تاريخ الفلسفة ، لنقارن على سبيل المثال بين هذين النصين ، يقول الكاتب :

« إن الفكرة التى انتهت إليها فى هذا الكتاب تتلخص فى ضرورة إبداع نظرة فلسفية انطلاقاً من مقولة الفعل ، أو من مقولة الوجود التاريخى » (١٨) .  
ثم يقول فى مجال آخر : « العقل الفلسفى واحد رغم اختلاف الأمكنة والعصور والمستويات ، وهو ينمو نمواً حقيقياً ، لكن على وتيرته الخاصة ، وبحسب شروط حياته الخاصة » (١٩) .

لا يمكن تجاوز التبعية العمياء عن طريق المناداة بالاستقلال الفلسفى ، ونحن نعتبر أن أى حديث عن الاستقلال الفلسفى ، لا يمكن أن يتحدد فى النهاية

إلا فى سياق الدفاع عن أحالة مفترضة ، وذلك لأن التبعية الفكرية تحصل نتيجة لتبعية أعمق متجذرة فى الوجود الاجتماعى بمختلف مظاهره ، فكيف تنتفى التبعية فى مجال النظر دون انتقائها من مجال الوجود التاريخى والعملى ؟ ثم إن الدعوة إلى الاستقلال تتطلب الإجابة عن مسألة أسبق منها وهى : هل يعنى الاستقلال التضحية بمكتسبات تاريخ الفلسفة ؟

### ثالثا : نحو قراءة تاريخية ونقدية لتاريخ الفلسفة :

لنقترح إذن تصوراً بديلاً لطريقة التعامل مع تاريخ الفلسفة ، فالتعامل القديم لم ينتج - كما حددنا سابقاً - إلا مواقف توفيقية ، وأخرى تابعة إن الغاء العمى الفلسفى لن يتم إلا بمغامرة الإبداع أى بمباشرة رؤية الوجود ، مباشرة إنتاج النظر فى الوجود (الكون والمجتمع) ولن يتحقق هذا النظر إلا انطلاقاً من شرطين اثنين : -

أولاً : التخلّى عن الرؤية اللاهوتية .

ثانياً : التسلح برؤية تاريخية ومنهج نقدى .

إن الشرط الأول مسألة تهم الوطن ( عندما يكون موطننا للإنسان ) تهم أوليات ودرجات الصراع التاريخى فى الوطن العربى ، أما الشرط الثانى فيمكن توضيحه كما يلى :

إن التعامل التاريخى النقدى مع تاريخ الفلسفة لا يتحدد كتعامل انجذابى عاطفى ، إنه فى العمق تعامل يعى متطلبات الثقافة الواعية والخلاقة .

وسنحاول توضيح هذا التعامل من خلال وضعنا لتخطيط مشروع قراءة للأكتوسيرية ، إننا لا نستطيع ممارسة أى تعامل نظرى مع الأكتوسيرية كمساهمة فى الفكر الفلسفى المعاصر إلا عند مراعاة المنطلقات الآتية : -

١ - إن الفكر الألتوسيرى يشكل ظاهرة فكرية ، مرتبطة بصيرورة الفكر الماركسى فى سياق تاريخ الفلسفة (٢٠) .

٢ - لا يمكن أن يفهم ألتوسير إلا فى سياق الجدل النظرى ، والصراع النظرى بين الماركسيين الفرنسيين ، وماركسى الغرب بشكل عام ، وفى إطار ما استجد فى سياق الفكر الغربى من مناهج وأدوات نظرية .

٣ - لا يمكن أن نقرأ ألتوسير إلا فى ضوء معضلات نظرية وأخرى واقعية تواجهنا كمثقفين مغاربة ، عرب ، ينتمون إلى ما أُلِّفنا تسميته بالعالم الثالث .

إن هذه القراءة عندما تضع نصب عينها هذه الأبعاد ، لا تغفل مطلقاً المستويات الأخرى المشكلة لبنية المشروع الفلسفى الألتوسيرى ، والمتعلقة بتفكيك واستنطاق مفاهيمه وأطروحاته .

وعلى عكس الكتابات الفلسفية المنشورة فى مجلة أقلام المغربية عن ألتوسير ، وجدنا أن الأستاذ عبد الله العروى فى دراسته : «أزمة المثقفين العرب» قد قدم ملاحظات مهمة حول ألتوسير وموقفه النظرى فى سياق الفلسفة الغربية كما أشار إلى قيمته بالنسبة لمثقف العالم الثالث ، حيث أوضح أن قراءة التوسير لماركس هى قراءة مثقف ماركسى غربى وأن القراءة اللازمة - فى نظره - لمثقف العالم الثالث ، لا يمكن أن تكون إلا قراءة تاريخية تستلهم أساساً ماركس «الأيديولوجية الألمانية» (٢١) .

## خلاصات :

١ - إن سيادة الفكر اللاهوتى فى جميع مظاهر الإنتاج الثقافى فى الوطن العربى ، تعنى بالضرورة ندرة الممارسة النظرية الفلسفية من حقل هذا الإنتاج .

٢ - إن استمرار التبعية لا ينتج إلا فكراً غريباً ، فكراً يستمد جذوره من تاريخ مغاير لتاريخنا ، من تاريخ الإنسان حقاً ، ولكن هل توجد حاضر الإنسان ؟

٣ - لا تمتلك الممارسة النظرية الفلسفية بناءً على ما سبق ، أى حضور تاريخى واسع فى محيط الثقافة العربية المعاصرة ، فهى فكر نخبوى .

٤ - الخطاب الفلسفى الناشئ هنا وهناك ، رغم كل الحواجز والعقبات ، عبارة عن خطاب انتقائى ، حيث نلاحظ طغيان الشروح المبسطة ، والنقل المستعرض على حساب البناء والتعامل النقدي ، والمساهمة فى التأسيس النظرى ، يعود سبب سيادة هذه الظاهرة فى نظرنا إلى غياب التعامل التاريخى النقدي مع الفلسفات التى تنتج عبر صيرورة تاريخ الفلسفة ....

٥ - إننا لا ندعو إلى استقلال فلسفى بديل للمواقف الإتباعية بل ندعو إلى تعامل تاريخى نقدي ، تعامل يتفهم فعالية التأسيس ويستلهم بكل وعى المنجزات النظرية لتاريخ الفلسفة ، كما يبدي وفاء العميق لفاعلية الإنسان النظرية ، بدون أن يغفل متناقضات اللحظة التاريخية الراهنة (فى الداخل والخارج ، ويتطلع فى الوقت نفسه لبناء وصياغة فكر فلسفى شامل ومتعدد .



## الهوامش :

- تشكل هذه المساهمة مشروعاً أولياً لدراسة مطولة حول «الفلسفة العربية المعاصرة» .
- ١ - أنظر كتابي : Lucien Goldmanm & Recherches Dialect - ques Page 33 - 34 Gallimard, 1958
- Althussar , Lire le Capital , T . T , Page: 39 - 50
- ٢ - يوجد نص الفتوى فى كتاب مصطفى عبد الرزق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - الطبعة (٢) مكتبة النهضة المصرية .
- ٣ - الفكر العربى فى مائة سنة ، ص ٥٩٥ منشورات العيد المئوى ١٩٦٧ وقد اعتمد ناصيف نصار على نفس التصنيف فى مقال له تحت عنوان :
- Remanques Sue La Senaissance de La Fehilesephie dous La Cultuse Arale Cntemporaine , im , Renaissana du Mude anale ,ed, . J . Duclot 1972 , rope 331 .
- ٤ - يتصف تصنيف جميل صليبا بعدم قدرته على إدراك بعض التيارات بالإضافة إلى خلط واضح فى المفاهيم ، نحن لانستطيع مثلاً أن نفهم ما هى أسس الجمع بين محمد عبده ويوسف كرم فى تيار إسمه التيار العقلى ؟ إن مفهوم العقل عند محمد عبده لا يتبلور ضمن مشروعه الكلامى الدفاعى إلا ك مفهوم أشعري ، أما المفهوم الذى يتحدد فى مؤلفات يوسف كرم الفلسفية فهو إما المفهوم اليونانى وخاصة الأرسطى منه ، أو المفهوم المحدد فى التيار الفلسفى العقلانى الحديث وخاصة فى صورته الديكارتية .
- نلاحظ أنه صنف الشميل فى إطار النزعة المادية ، إلا أن مراجعة متأنية لكتابات الممهدة لمقالات بوختر حول فلسفة النشوء والارتقاء امتازت بموقعها الوضعى ، يقول شبلى الشميل فى خاتمة مقدمته لكتاب مقالات حول فلسفة النشوء والارتقاء : «لأن الفلسفة إن كان لا يزال لها معنى اليوم فإنها ستصبح مبتذلة فى مستقبل الأيام ، فالمستقبل للعلم ، وللعمل العملى وحده» ص رقم د . ثم يقول أيضاً فى الفصل الأول المعنون بـ «حول المادة والقوة» : فتكون العالم من العدم أمر مستحيل ، لا يقبله العقل ولا يثبت الإختبار ، والعدم لفظة لا معنى لها » ص ٢٣٦ .
- ٥ - انظر رفعت السعيد : تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ج ١ دار الفارابى ص ٧٧ - ٧٨ ..
- ٦ - يجب ألا ننظر إلى هذه المسألة بكثير من الغرابة .. ذلك لأن الندوة التى تضمنت عمل جميل صليبا تمت فى محراب الجامعة الأمريكية فى بيروت سنة ١٩٦٦ .
- ٧ - انظر الفقرات المتعلقة بشخصانية الحبابى ووضعية زكى نجيب محمود فى هذا البحث .

٨ - من بين مؤلفات الحبابي الأساسية نجد مايلي : الشخصانية الإسلامية من الكائن إلى الشخص - حرية أم تحرر - من المنطلق إلى المفتوح ، وقد نشرها في البداية بالفرنسية ثم ترجمت بعد ذلك إلى اللغة العربية .

٩ - يقول الحبابي : فمأساة الوعي عند هيجل ، وتجربة القلق عند كيركجارد ، استرقاق رأس المال عند ماركس ، وتجربة الإبهام عند الوجوديين ، ولاإلتباس عند مونيبي ، والعبث عند كامو ، كله ذلك تجارب نحياها في مستوى الشخص ، لكن رغم التحديدات التي يفرضها الانتساب إلى طبقة ما على شخص (ماركس) ورغم الوضع الوجودي (سارتر) واعتراف الإنسان بالإنسان داخل معشر (مونيبي) رغم ذلك كله توجد قيمة نشعر بمقتضاها بأتنا فوق وضعية الطبقة والمعشر والفكرولوجيات التي تربطنا بجماعة تجعلنا متعارضين مع جماعات أخرى .

١٠ - انظر ص ٩٩ من كتاب « من الكائن إلى الشخص » حيث نجد الحبابي يتحدث عن بروتاجوراس ومونيبي وكأنط ..

١١ - لقد كان كتاب «الزمان الوجودي» هو رسالة بدوي الجامعية والتي ضمنها خلاصة فهمه للوجودية وقد أصدره سنة ١٩٤٥ .

١٢ - من مؤلفاته عن فلاسفة الغرب : نيتشه ، شوبنهاور - الموت والعبقرية - هموم الشباب .

١٣ - لقد أنجز بدوي حتى الآن أكثر من ٦٦ مؤلفا ما بين مؤلفاته الشخصية ومترجماته وتحقيقاته .

١٤ - انظر المنطق الوضعي (١٩٥١) ، خرافة الميتافيزيقا (١٩٥٣) نحو فلسفة علمية (١٩٥٨) .

١٥ - «تجديد الفكر العربي» ص ٦ - ٥٠ ، دار الشروق وقد صدر سنة ١٩٧١ .

١٦ - نشرت مجلة «أقلام» سنة ١٩٧٤ عبر سلسلة من الأعداد ترجمة كاملة لكتاب التوسير : «لينين والفلسفة» ، وقد أنجز الترجمة الأستاذ محمد سبيلا .

انظر أيضا الأعداد ١ - ٣ سنة ١٩٧٦ والعدد ٥ سنة ١٩٧٧ .

١٧ - صدر الكتاب من دار الطليعة سنة ١٩٧٥ .

١٨ - الاستقلال الفلسفي ص ١٢ .

١٩ - مواقف ، العدد رقم ٣٤ سنة ١٩٧٩ .

٢٠ - لتراجع مقدمة «دفاعاً عن ماركس» ، أو مقالة «لينين والفلسفة» حيث يمكن أن تتبين الطابع السجالي لفلسفة التوسير ، ذلك أنه يجادل واقعه النظري والتاريخي حيث يتحدث عن غياب وعي فرنسي بالفلسفة الماركسية ، وينتقد النزعة الإنسانية ، والنزعة الاقتصادية ، ويقترح قراءة جديدة لماركس ..

٢١ - انظر هامش ٩ ص ١٦٧ ، ١٤٨ من كتاب - :

٣ - نحن والائـــوار

مــــــــــــن

ايدولوجيا التنوير إلى فلسفة الائـــوار

م ٤ - في الفلسفة



## مقدمة

لا نريد فى هذه المساهمة أن نؤرخ لمواقف الفكر العربى من فلسفة الأنوار ، بل نريد فقط الوقوف على نماذج من المواقف التى حاورت جوانب من فكر الأنوار ، وذلك فى إطار محاولة أعم وأشمل هى التفكير فى علاقة العربى بتاريخ الفلسفة ، من أجل أن نتمكن من معاينة أنماط التأويل التى مارسها ويمارسها الفكر العربى مع فلسفات معينة فى تاريخ الفلسفة .

إن ضمير نحن فى عنوان هذه المحاول يتسع ليشمل دائرة الفكر العربى المعاصر ، منذ الكتابات النهضة فى نهاية القرن التاسع عشر إلى الكتابات الفلسفية الناشئة اليوم فى مجال الفلسفة العربية المعاصرة .

ولا بد من الإشارة فى هذا التقديم إلى أن بحثنا فى كيفية تعامل المثقفين العرب مع فلسفة الأنوار ينطلق من ثلاث مقدمات نعتمدها فى البحث ، وتلعب دور الموجه لأهم الخلاصات والنتائج التى نصل إليها فى نهايته .

### المقدمة الأولى :

نحن نسلم بوجود كثير من العسر فى تمثيل الفكر العربى لأطروحات ومفاهيم فلسفة الأنوار ، ونفسر ذلك بالملابسات التاريخية والنظرية التى أحاطت ومازالت تحيط بالدرس الفلسفى على وجه العموم ، فى محيط الثقافة العربية الإسلامية منذ عصورها الوسطى وإلى يومنا هذا . وسنبين فى هذه المحاولة أن العامل العقائدى الدينى لا يشكل العائق النظرى التاريخى الوحيد أمام مغامرة الإبداع النظرى الفلسفى فى الوطن العربى ، بل إن عوامل أخرى

مثل العامل السياسى المتمثل فى تغليب آلية التحليل السياسى الطرفى فى قضايا الفكر ستضيف إلى العامل المذكور عائناً جديداً يدعم استمرار ضمور النظر الفلسفى ، فى الفكر العربى المعاصر (١) .

## المقدمة الثانية :

نستعمل فى هذه المحاولة مفهوم « الاستيعاب النقدي المركب » لدروس تاريخ الفلسفة ، ونقصد به التمثيل المركب والتركيبى المخصب لتاريخ الفلسفة ، ذلك أننا لا نتصور إمكان تمثل كل مرحلة من مراحل تاريخ الفلسفة فى ذاتها ، وباستقلال عن المراحل التى سبقتها والمراحل التى تلتها ، فمتابعة تاريخ الفلسفة بصورة تقليدية (شرح وتبسيط المذاهب والتيارات الفلسفية) ، كما حصل فى منتصف هذا القرن ، قد تكون مفيدة فى المستوى التعليمى ، ومستوى المعرفة بقضايا الفلسفة وتاريخها ، إلا أنها لا تمكن من حصول الاستيعاب المبدع والخلق ، والمطور للقضايا الكبرى التى بلورها تاريخ الفلسفة . إن التمثيل الخلاق يراود فى تصورنا النقى الخلاق ، وهو جدلية تتيح للفكر العربى المساهمة فى الفكر الفلسفى باعتباره فكراً كونياً ، رغم ملامحه المحلية هنا وهناك .

وإذا كان الأستاذ عبدالله العروى قد وضح قبلنا (٢) ، صعوبات الثقافة الحاصلة فى الفكر العربى المعاصر ، بحكم التراكم المعرفى الغربى المرتبط بثورات معرفية وصيرورات تاريخية طويلة ومعقدة ، فإن الاستيعاب المركب والنقدى يتيح لنا تجاوز الانتقائية والتبعية الحاصلة فى دائرة الفكر العربى ، ويمكننا من محاوره إشكالات هذا الفكر بتوسيعها وتعميق النظر فيها ، فى ضوء الخصوصيات السياسية والفكرية ذات الطابع المحلى ، فنتمكن من إعادة إنتاجها بالصورة التى تمنحها خصوصية ، وتطبعها فعلاً بالطابع الموسع لدائرة شمولها ، وتمنح فكرنا ميزة الخلق والابتكار .

## المقدمة الثالثة :

أشرنا فى بداية هذا التقديم إلى أننا لن نؤرخ لفكر الأنوار فى الثقافة العربية المعاصرة ، ونريد أن نوضح فى هذه المقدمة الأخيرة ، أن متابعتنا لنماذج من كيفية تعامل الفكر العربى مع فكر الأنوار ستركز على جملة من المفاهيم الأنوارية التى وجدت لها صدى واضحاً فى الفكر العربى ، ويتعلق الأمر أساساً بمفهومى «النقد» و«العلمانية» ، مع بعض الإشارات ذات التمثيلية لبعض المفاهيم والأطروحات الأخرى المرتبطة بالمفهومين السابقين ، أو المتصلة بالمبادئ الكبرى لفلسفة الأنوار .

إن الاهتمام بهذين المفهومين - نقد التراث ، والبحث فى طبيعة علاقة الديننى بالسياسى داخل إطار التفكير فى حدود مجال السياسى فى الكتابة العربية المعاصرة - يتيح لنا متابعة الكيفية التى مارس ويمارس بواسطتها الفكر العربى معالجته لإشكاليات مرتبطة بروح عصر الأنوار وفكر الأنوار .

## الفكر العربى والأنوار :

بعد هذه المقدمات نريد أن نستعرض نماذج من المواقف التى بلورها الفكر العربى تجاه فلسفة الأنوار ، ونحن لا ندعى أن هذه النماذج تتصف بصفات العينة الجامعة والمانعة ، كما أننا لا نستطيع القول إنها تمثل لحظات متتابعة فى تاريخ تطور علاقة الفكر العربى بفلسفة الأنوار ، رغم مايمكن أن يوحى به تتابعهما فى الزمان .

النماذج هنا منظومات ومواقف فكرية تعبر عن حالات ذهنية داخل إطار الفكر العربى وترتبط بآليات الصراع التاريخى والثقافى الدائر فى المحيط العربى ، وهى تتعايش مع بعضها وتعبر عن حالات من تمزق الوعى العربى أمام

واقعة ، وأمام تاريخ الفكر الإنسانى . وفى إطار زمانية أوسع تتسم بالهيمنة الغربية ، كما تعبر عن جهود الفكر العربى فى مقاربة واقعه التاريخ بأساليب النظر الفلسفى .

### الموقف الأول : - فى الدفاع عن أيديولوجية التنوير

يشكل فكر الأنوار واحداً من الأطر النظرية المرجعية الموجهة للأيديولوجية العربية المعاصرة . وقد بلور المصلحون المصريون والشوام فى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين اختيارات فكرية تدعو إلى قيم التنوير ، وتسلم بأهمية المفاهيم التنويرية ، ومبادئ عصر الأنوار ، فى تطوير الفكر العربى والواقع العربى .

ومن أبرز المثقفين المتحمسين لفكر الأنوار يمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر فرح أنطون ، وشبلى الشميل ، وسلامة موسى ، ولطفى السيد ، وعلى عبدالرازق ، وطه حسين . وقد ساهم كل هؤلاء بدرجات متفاوتة فى إنجاز تأويل إيجابى لفكر الأنوار داخل فضاء الفكر العربى المعاصر .

فقد دافع فرح أنطون عن العلمانية ، ودعا إلى «التساهل» (٣) ، وتميزت دعوته بنزعة معلنة ومبررة . نقرأ له الفقرة الآتية ، وهى تبرز الطابع النقلى والنضالى لمواقفه من المفاهيم الأنوارية ، «قمعنى التساهل عندهم (يقصد الأوربيين) وهو المعنى الذى استعملناه له ، أن الإنسان يجب ألا يتدين أخاه الإنسان ، لأن الدين علاقة خصوصية بين الخالق والمخلوق (٠٠) والإنسان من حيث هو إنسان فقط ، أى بقطع النظر عن دينه ومذهبه صاحب حق فى كل خيارات الأمة ومصالحها ووظائفها الكبرى والصغرى ، وحتى رئاسة الأمة نفسها . وهذا الحق لا يكون له من يوم يدين بهذا الدين أو بذلك ، بل من يوم يولد . فالإنسانية هى الإخاء العام الذى يجب أن يشمل جميع البشر ويقصر دونه كل إخاء» (٤) .



ونقرأ له فقرة ثانية تعلن دعوته إلى مجاراة ما كان يطلق عليه «التمدن الأوربي» باعتباره ضرورة تاريخية لا مناص منها ، وقد وضعها في صورة إهداء في مفتتح كتابه «ابن رشد وفلسفته» ، لا نعلم كيف يستقبل أبناء العصر هذا الكتاب في هذا الزمان . ولكننا نعلم أن «النبأ الجديد» في الشرق الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين في عصر كهذا العصر ، فصاروا يطلبون وضع أديانهم جانباً في مكان مقدس محترم ليتمكنوا من الاتحاد اتحاداً حقيقياً ، ومجاراة تيار التمدن الأوربي الجديد . ، لمزاحمة أهله ، وإلا جرفهم جميعاً وجعلهم مسخرين لغيرهم (٥) .

في الشواهد المذكورة اختيارات معلنة وصريحة ، دعوة إلى التغريب ، ترى في قيم التنوير نموذجاً فكرياً قابلاً للإقتداء بالنسخ والإستعادة ، من أجل تجاوز مظاهر التأخر الثقافي السائدة .

وفي السياق نفسه ، وينفس الحماسة في الدعوة يكتب سلامة موسى عن أعلام التنوير ، عن فولتير وبيدرو وروسو وغيرهم ، ويبشر بالقيم التي دافع عنها هؤلاء في دائرة فلسفة الأنوار في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . ونحن نجد في كتاباته كثيراً من النصوص التي تمجد فلسفة الأنوار ، وتبين دورها في تحرير الفكر العربي من قيوده الوسيطة ، ودورها في إمكان تحرير الفكر العربي من قيوده ، يقول سلامة موسى «يهفو الذهن إلى ذكرى فولتير كلما هبت على الأمة عواصف الظلام التي تقيد الحرية ، وتسوغ الاعتقال ، وتمنع الكتب ، وتراقب الصحف ، وتضع الحدود والسدود للعقول ، وتنتهك النفوس البشرية بأفطع مما ينتهك الفاسق الأجسام البشرية ، ذلك لأن فولتير عاش من أجل الحرية» (٦) .

داخل دائرة هذا الموقف الذى ظهرت ملامحه الأولى فى نهاية القرن الماضى ، ولم ينقطع صداه من الفكر العربى المعاصر إلى نهاية قرننا هذا ، نعثر على كتابات جديدة تحمل نفس الدعوة ، وفى بعض أعمال فؤاد زكريا (٧) ومراد وهبة نعثر على مواقف مماثلة للموقف المذكور . رغم أن محاولات المتأخرين الأحياء تتضمن كثيراً من الجهد فى الاستيعاب النظرى لأصول المفاهيم والفلسفات ، إلا أنها فى مستوى الموقف لا تتجاوز دائرة الحماسة الأنوارية المعروفة فى نصوص النهضويين المشار إليهم آنفاً .

وبناء على ما سبق نحن نعتبر أن النصوص الأنوارية العربية - نصوص عصر النهضة - تتضمن كثيراً من الحماسة الأيديولوجية ، وقليلاً من النظر النقدى المؤصل للفكر الفلسفى . إن انشغال أصحاب النصوص بمتطلبات الدعوة الأيديولوجية المعتمدة على قاعدة الأنوار ، ساهم فى تقليص متطلبات النظر الفلسفى فى أعمالهم .

ونستطيع أن نؤطر الدفاع الحاصل على المفاهيم الأنوارية فى الفكر العربى النهضوى ضمن سياق الملابس السياسية التى تؤطر أطروحات الجناح المسيحى داخل دائرة المثقفين الليبراليين ، وفى إطار مسألة الخصوصية التاريخية للأقليات فى المشرق العربى ، إلا أن هذه الملابس لا تفسر كل أبعاد وتجليات المنحى التغريبى البارز فى الدعوة الأنوارية المذكورة .

إن الفعل العقلى الذى يهمنى إبرازه فى هذا الموقف هو فعل الاستعادة الآلية ، الاستعادة التى تقبل أن يكون التأصيل فعلاً نظرياً منتهياً فى سياق صيرورة المنظومة الفلسفية الغربية دون أى إدراك للبعد التاريخى الخاص المؤطر لهذه المنظومة ، والمحدد لملامحها . فقد كان الدعاة المتنورون أمثال فرح أطون وسلامة موسى ينظرون إلى الأنوار كعقيدة . إنها فى نظرهما بديل للعقائد

والحقائق المطلقة السائدة . إن الأنوار فى فكرهما عقيدة جديدة قادرة على زحزحة وإزاحة كل الظلمات ، بفعل الدعوة لا بفعل التفكير ، ومن هنا طغيان الشعارية والتكرار فى نصوص هذين المفكرين ، ومن يفكر فى الأنوار على منوالهما .

إن سجالهما مع ممثلى الدعوة السلفية ، لم يساعدهما على تأصيل النظر الأنوارى ، قدر ما دفعهما إلى استعادة أطروحاته بدون أى حسن تاريخى نقدى يمكن من إعادة صياغة الأسئلة والأجوبة التاريخية والسياسية المطورة للحظة الأنوار فى نشأتها الأولى ، ولحظة الأنوار فى صورتها العربية كحظة تقتضى إعادة إنتاج البناء بالنظر .

ليس معنى هذا أننا ندافع عن خصوصية ما للفكر والواقع العربيين ، بل معناه أولاً وأخيراً يتحدد فى إعطاء الاعتبار فى مجال الثقافة والإبداع للمتغيرات الخاصة التى تساهم فى تطوير الأفكار فى الزمان ، خاصة أن المنظومة الأنوارية ترتبط بنظام الحداثة الأوروبى الذى توطئه ثورات علمية وسياسية واجتماعية غائبة عن صيرورة الأحداث فى التاريخ العربى المعاصر (٨) فكيف تستعاد الأنوار دون تفكير فى أولياتها فى الفكر وفى التاريخ ؟

## الموقف الثانى : فى قصور الأنوار :

مقابل حماسة الموقف الأول للأنوار ، نعثر فى الفكر العربى المعاصر على صور فكرية متعددة فى رفض ومعاداة فكر الأنوار ، وفى نصوص النزعة الإصلاحية السلفية نجد رفضاً للأطروحات التنويرية ، ونقداً للدهريين وفلاسفة الدين الطبيعى ، ومختلف النزعات المادية والوضعية ، كما نعثر فى النصوص السلفية المتأخرة على كثير من النقد للنظريات السياسية التى تدور على فلك الأنوار ، وفى نصوص النزعة الإصلاحية السلفية نجد رفضاً صريحاً

للأطروحات التنويرية ، ونقداً للدهريين وفلاسفة الدين الطبيعي ، ومختلف النزعات المادية والوضعية ، كما نعثر في النصوص السلفية المتأخرة على كثير من النقد للنظريات السياسية التي تدور في فلك الأنوار ، ومن المعلوم أن النقد السلفي للفكر الأنواري يندرج في إطار الموقف السلفي من الغرب ، وتؤطره ملايسات تاريخية ظرفية تبرر معاداة الغرب باعتباره قوة استعمارية مهيمنة .

إن إثبات الهوية الذاتية في التاريخ والثقافة والسياسة ، دفع بعض النخب المثقفة في الوطن العربي ، وضمن دائرة العالم الإسلامي إلى إبراز مقومات تراثية ضد فكر الآخر المستعمر والمهيمن ، فتم النظر إلى فكره باعتباره فكراً هداماً ، ولم يتمكن دعاة الحركة السلفية من إدراك تعددية الغرب في التاريخ والثقافة والسياسة ، فانتقدت الأنوار في سياق نقد الفكر الغربي ، دون أي محاولة لفهم مختلف الأبعاد التحررية والعقلانية التآوية وراء فلسفة الأنوار ومشروع الأنوار ، وباستثناء التبرير التاريخي المؤطر لموقف السلفيين من الغرب ، لانجد في نصوصهم أي محاولة في تأسيس موقف نظري نقدي من فلسفة الأنوار ، وغالباً ما كان يتم في نصوصهم هجاء الأنوار أكثر من نقدها بأساليب النقد الفلسفي ، وهذه مسألة واضحة في نصوص الأفغاني وسيد قطب .

إن هجاء الأنوار من منظور أخلاقي يكشف عن عدم تكافؤ الحجج في الخطاب ، وهذه مسألة واضحة في «رسالة الرد على الدهريين» (٩)

ورفض التقدم مسألة مكشوفة في نص «المستقبل لهذا الدين» (١٠) يقول الأفغاني : « والأضاليل التي بثها هذان الدهريان (قولتير وروسو) هي التي أضمرت نار الثورة الفرنسية المشهورة ، ثم فرقته بعد ذلك أهواء الأمة وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها» (١١)

وفى إطار المواقف المذكورة نجد محاولة للأستاذ حسن حنفى ، وهى محاولة تتميز بجهدا متميز فى استيعاب فلسفة الأنوار ، ومجادلة أصولها وأبعادها فى ضوء إشكالات ترتبط بصيرورة تاريخ الفلسفة ، كما ترتبط بملايسات التاريخ العربى المعاصر .

ولابد من الإشارة بأن محاولة حسن حنفى التى سنحاول عرضها - كنموذج معبر عن الموقف الثانى ، تتميز بكونها محاولة منجزة من طرف باحث يشتغل بالفلسفة وتاريخها ، وهى تحاور النص الأنوارى من الداخل ، وتحقق إلى حد بعيد مبدأ تكافؤ الحجج ، أثناء رسمها لحدود ومحدودية الأنوار ، وفى أفق رفض معلن لفلسفة الأنوار ، نظراً لإخفاقها التاريخى ، وذلك رغم التناقضات الكبيرة التى تثيرها تحليلات ومواقف حسن حنفى فى دائرة البحث فى فلسفة الأنوار ، وفى دائرة جهوده الفلسفية الأخرى المرتبطة بمشروعه فى النهضة الفكرية والإصلاح العقائدى .

سنعتمد فى تقديمنا لموقف حسن حنفى من الأنوار على الفصل الذى كتبه فى مقدمة ترجمته وتعليقه على كتاب لسنج «تربية الجنس البشرى» (١٢) ، وهو بعنوان «فى حدود فلسفة الأنوار» (١٣) ، وقد كتبه حنفى بكثير من الكثافة فى التعبير ، والإيجاز فى العرض ، ففى هذا النص نستطيع أن نتبين ملامح لتأسيس رفض فلسفى لفكر الأنوار ، وفى هذه المسألة بالذات نجد عند حسن حنفى ما نعتبر أنه ظل مقفوداً فى النصوص السلفية الرافضة للغرب ، ولشروعه الفكرى والسياسى على وجه الإطلاق .

يقوم الباحث فى الفصل المذكور بعرض نقدى لأهم المفاهيم الناطمة لفلسفة الأنوار ، فيبرز التناقض الحاصل بين مقدمات ونتائج هذه المفاهيم ، فى

سياق تطور الفلسفة الغربية ، لافتاً النظر إلى المفارقات المترتبة عن المبادئ والمفاهيم وصيغ تمظهرها فى التاريخ .

أما المفاهيم التى حاول بواسطتها توضيح هذه التناقضات ، فهى العقل والحرية ، التقدم ، الأمة ، الفردية ، الشمول ، الإنسان .

وقد أبرز بصورة اختزالية كيف أن العقل أداة التنوير ودعامته الكبرى ، لم يعد اليوم يقوم بوظيفته كما بلورتها فلسفة الأنوار «فقد تولى عن وظيفته التحريرية للوجدان والتصوف ، وأصبح خاضعاً لتحكم الآلة وحسابها» (١٤) .

أما الحرية فقد نشأت داخل دائرة فكر الأنوار ، وباعتبارها وسيلة خلاص الإنسان «من كل صور القهر والطغيان الدينى والسياسى (١٥) وتحولت اليوم إلى حرية عابثة » تعبر عن أزمات الإنسان أكثر مما تعبر عن غايته « (١٦) كما وضح أيضاً أن مفهوم التقدم - وهو من المفاهيم المركزية النازمة لفكر الأنوار - قد انتهى فى الفلسفة الغربية المعاصرة إلى الحديث «عن المحنة والاحتضار والمأساة والضياغ» كما انتهى مفهوم الفردية الذى كان يشكل أكبر رد فعل على المؤسسات الدينية ، إلى الرأسمالية القائمة على استغلال الإنسان ، حيث فقد الوعي الأوربى فى حكمه على التاريخ حياده ، ولم يستطع تجاوز حدوده» (١٨) .

إن الخلاصات التى وقف عليها حسن حنفى عند محاولته إبراز قصور فلسفة الأنوار ، كانت تتجه نحو إثبات فشل مشروع الأنوار ، فقد كان يسلم بأهمية المفاهيم الأنوارية ، ويثبت فى الوقت نفسه فى نهاية تحليله الانشطار والتمزق الحاصل فى بنية هذه المفاهيم ، ضمن صيرورة تاريخ الفلسفة ، الغربية فى علاقته بالتاريخ العام ، إلا أنه أثناء العرض والتحليل لا يقرأ تحولات المفهوم الفلسفى الأنوارى بصورة تاريخية إيجابية ونسبية ، قدر ما يتناولها من خلال رؤية مسبقة تقضى به إلى النتائج التى يتجه منذ البداية نحو الدفاع عنها .

نحن نقف هنا على نموذج للقراءة السلفية الساعية إلى إثبات قصور الأنوار لمصلحة الاختيار الفكري السلفي ، الذي لا يجد أى حرج نظرى فى مطابقة مبادئ الإسلام بمبادئ فلسفة الأنوار ، وإعلان مطلقة أنوار الإسلام الأبدية والخالدة ، يقول الباحث : « تلك هى حدود فلسفة التنوير وربما أيضاً حدود المثالية الغربية بوجه عام ، لم تستطع أن ترفع الوعى الأوربي وأن تحرره من قيوده وثقله الدفين (....) وربما يوجد شعور حضارى آخر قادر على الحفاظ على مثل فلسفة التنوير يكتمل الوعى فيه ، ويحقق غايته ، ويكون قادراً على إطلاق فلسفة التنوير فى الفكر والواقع على السواء .. وهو شعورنا نحن الذى أعلن عن مبادئ فلسفة التنوير منذ أربعة عشر قرناً باكتمال النبوة وانتهاء مراحل الوعى ، وبالتالي نكون نحن هم ممثلى هذه الإنسانية الجديدة (١٩) .

واضح من الفقرة السابقة أن قصور فلسفة الأنوار يعوض بكمال العقيدة الإسلامية المكتملة بالوحي ، وفى هذه المسألة بالذات يصبح موقف حسن حنفى نموذجاً للحجاج الفلسفى الرافض لمبادئ الأنوار الأوربية والمبشر بالأنوار الإسلامية ، ويمكن أن نقول إن الحركة السلفية قد أسست بهذا النص رفضها الفلسفى لفلسفة الأنوار فى مستوى سياق التحليل ومعطياته ، ولم تعد ترفض غرب الأنوار باعتباره نموذجاً للصليبية الجديدة ، والنصرانية المخاصمة أبداً لدار الإسلام ، إلا أن هذا النقد فى خلاصاته الكبرى يظل محكوماً كما بينا برؤية قبلية تفضى إلى رفض الأنوار .

وفى إطار الجدل الفلسفى الخالص نستطيع أن نواجه هذا الموقف انطلاقاً من كونه يغفل ويتغافل مقدمات فكر الأنوار ، فلا يمكن أن تصبح نقائص الأنوار بديلاً عن الأنوار ، ذلك أن عقلانية الأنوار تشكل قطيعة مع «عقلانية» الخطاب الدينى (٢٠) .

كما أن الفلسفة السياسية المؤسسة فى إطار المبادئ العامة لفلسفة الأنوار تؤسس مفاهيمها فى إطار نقد ونبذ مفاهيم ودعائم سلطة الدين فى مظاهرها الكنسية والكهنوتية ، والأخلاق الإنسانية المستخرجة من روح الأنوار تروم وضع الإنسان فى مركز الكون مقابل التصورات الدينية التى تضعه فى سلم مراتبى مخالف لسلم المراتب كما صاغتها فلسفة الأنوار .

فالمسلمات المذكورة تؤسس فلسفة وسياسة وأخلاق متميزة عن مبادئ العقائد الدينية ، ولا يمكن وصل هذه بتلك إلا فى إطار منظور أيديولوجى لا يعير أدنى اهتمام لمسألة تماسك أصول ومبادئ العقائد الفلسفية والدينية .

ومن سياق العرض السابق نعتبر أن موقف حسن حنفى يغذى الأطروحة السلفية المناهضة للغرب ، ولغرب الأنوار بالذات ، وهو يقدم نموذجاً لقراءة تنتظر إلى مجمل إنتاج تاريخ الفلسفة باعتباره دون مستوى مبادئ الرسالة السماوية ، وفى هذه المسألة بالذات يتخلى عن تاريخية قراءته لمصلحة دعوة تبشر بمثل «التنوير الإسلامية» ، وهذه مسألة قابلة للجدل ليس فقط فى سياق الفكر المناهض للفكر السلفى ، بل فى دائرة الفكر السلفى نفسه .

**الموقف الثالث : نحو توسيع المكتسبات الفكرية لفلسفة الأنوار :**

تبيننا فى الموقفين السابقين ، أسلوبين فى التعامل مع مكتسبات فكر الأنوار ، الأسلوب التغريبي الداعى استيعاب فكر الأنوار باعتباره فكراً مطابقاً لمتطلبات لحظتنا التاريخية الراهنة ، وباعتباره وسيلة من وسائل بلوغ عتبة الحداثة (٢١) والأسلوب الرافض بمختلف صيغه ، سواء منها الصيغ القطعية المتجاهلة لأوليات هذا الفكر ، أو الصيغ المجادلة فى صلاحيات أفكار عصر التنوير داخل محيطها التاريخى الخاص وفى إطار المجال التاريخى الإنسانى العام .



وفى كلا الأسلوبين نستطيع أن نتبين الطابع الجدالى المؤطر بظرفية تاريخية متميزة بعدم التكافؤ بين الأطراف المتجاذلة ، فمن المعروف أن زمن المثاقفة الحاصلة فى العالم العربى منذ منتصف القرن الماضى وإلى يومنا هذا قد اتسم طغيان الهيمنة الغربية فى مختلف مجالات الوجود المجتمعى ، فى الاقتصاد والسياسة والتقنية ، وكان لهذه المسألة أثرها القوى فى المستوى الفكرى ، مما ولد مواقف فكرية حادة ومتقاطعة ، كما ولد الانتقائية والازدواجية وهما ملمحان بارزان فى الخطاب العربى المعاصر ، إلا أننا نلاحظ أن الفكر العربى قد اتجه فى العقدين الأخيرين إلى إعادة إنتاج فكر الأنوار بطريقة تتميز عن الموقفين السابقين ، وذلك بعد انطفاء لهيب المعارك الظرفية التى أشعلتها نصوص على عبد الرزاق وطه حسين فى العقد الثالث من القرن العشرين (٢٢) .

ولا بد من التوضيح هنا بأن جوانب متعددة من فكر الأنوار تستعاد اليوم فى إطار تدعيم العقلانية والحرية والتقدم فى الفكر العربى والواقع العربى ، إلا أن الاستعادة الجديدة تتسم بمحاولات بارزة فى تقليص المحتوى الأيديولوجى الظرفى ، لمصلحة قراءة تتوخى ما أمكن الوقوف على الروح الفلسفية التاوية خلف البيانات الأيديولوجية المتحمسة للأنوار .

وإذا كان من المؤكد أن النص الأنوارى من فواتير ، إلى روسو ، إلى كانط إلى ديدرو ، قد تميز بكثير من التنوع فى أطروحاته ، من الجذرية إلى التوفيقية ، فإن صداه فى الفكر العربى منذ متونى بدايات القرن العشرين ، إلى المتنورين الجدد ، ستتسم بنفس التنوع ، وتعرض أمامنا مواقف تتفاوت فى طابعها الراديكالى ، وتتراوح بين الموقف المتصالح مع المعطى التاريخى كما هو ، إلى الموقف الساعى إلى ممارسة النقد الجذرى دون أى حساب تاريخى ظرفى ، لرسم طوبى ممكنة التحقيق نظراً وممكنة التحقق فى الواقع رؤية وأملاً ..

نستطيع أن نتبين ملامح هذه الاستعادة فى العناية الخاصة التى أصبح يوليها الفكر العربى اليوم لمفهوم النقد ، كما نستطيع أن نتبين ذلك أيضا فى الجدل السياسى المؤسس لمفاهيم الديمقراطية والعلمانية وحقوق الإنسان .

إن مشاريع نقد التراث المتبلورة فى حقل الدراسات الفلسفية العربية اليوم ، تؤشر على توجه فكرى متشعب بروح فلسفة الأنوار ، ويتجلي ذلك فى المخاطرة المتمثلة فى تشريح المنظمات الفكرية التراثية ، للوقوف على أبعادها ، وإبراز حدودها ومحدوديتها المعرفية والزمانية .

ففى الأعمال النقدية لمحمد أركون ومحمد عابد الجابرى (٢٣) ملامح مشرقة للبعد الأنوارى فى فكرهما ، رغم تنوع نتائج أبحاثهما ، إن اعلاهما من شأن التوجه العقلانى النقدى فى مقارنة الظاهرة التراثية يساهم فى تأسيس جدل عقلانى حول الذات والتراث ، ويمهد السبيل نحو الوقوف على بنية العقيدة فى تاريخيتها .

صحيح أن توجهات محمد أركون فى البحث أكثر جذرية وأن أبحاث الجابرى موجهة بالهاجس السياسى (٢٤) ، بكل مقتضياته التاريخية ، إلا أنهما يساهمان معاً فى توسيع مساحة التنوير الفكرى فى الفكر العربى ، كما يساهمان فى بلورة تقاليد البحث العقلانى فى قضايا التراث .

إن مقاربتهم النقدية للتراث تساهم فى إنشاء جدل يتوخى التحرر (٢٥) ورفع القصور الذاتى المطمئن إلى سقف عقائدى غير مطابق لمتطلبات الحاضر والمستقبل ، ومن هنا إلحاح الجابرى فى مشروعه النقدى على ضرورة تدشين عصر تنوير جديد ، يتيح لنا كسر بنية العقل العربى السائد ، ويجعلنا نساهم فى إغناء وتوسيع دائرة العقل الكونى فنحن لا نمارس النقد من أجل النقد ، بل

من أجل التحرر مما هو مميت أو متخشب فى كياننا العقلى وإرثنا الثقافى (٢٦) .

أما محمد أركون فإنه يروم داخل دائرة المسعى النقدى المذكور بلوغ المقاصد الآتية :

- تجاوز المركزية الأوربية

- تحطيم التفرد اللاهوتى

- بلورة بحث علمى ينطلق من اعتبار أن الوعى والحقيقة والتاريخ أمور مترابطة ومتفاعلة بشكل محايث (٢٧) .

ومن الواضح أن المسعى النقدى الموجه لأعمال هذين المفكرين لا توطئه المرجعية الأنوارية فى صورتها المعهودة كأصل ، ( فلسفة القرن الثامن عشر ، أو فلسفات ما بعد عصر النهضة الأوربية المؤولة كتمهيد لفلسفة الأنوار ) بل إن مرجعيتهما الفكرية تضيف إلى دروس الأنوار ، الجهود المنهجية المتطورة التى بلورتها الفلسفة المعاصرة ، وبلورتها علوم الإنسان ، وهى جهود لا يمكن إغفال قاعدتها الأنوارية المتمثلة فى إمكانات الإنسان اللامحدودة فى المعرفة ، والمتمثلة أيضاً فى الإقرار بإمكان معرفة كل ما له علاقة بالإنسان والطبيعة بمعايير وضعية ، مع نقد شديد للمعارف ذات النصية ، وخاصة المعارف الوسطوية اللاهوتية .

إن درس الأنوار فى قراءتهما للتراث العربى الإسلامى يتجاوز فضاء الأنوار المشحون بنموذج من نماذج الصراع التاريخى الحاصل فى أوربا منذ محدد ، وهو درس يستجيب فى نظرنا لروح الأنوار التى ما تزال تسرى فى كل فكر يعتمد أوليات الأنوار الكبرى المتمثلة فى الإعلاء من قيمة الإنسان ، وفى الدفاع عن العقل والعقلانية النقدية ، وفى التشبث بالحرية ضد كل قيم القهر

والاستبداد والطغيان ، وفى تصور للطبيعة يقضى بالنظر إليها كجملة من القوانين الرياضية القابلة للتعقل فى إطار الجهد الإنسانى ، الجهد الذى ما يفتأ يطور أساليب نظره للكون ، فى سياق الصورة التى يرسمها تاريخ العلم المعاصر.

ولعلنا نستطيع أن ندرك فى أبحاثهما استيعاباً نقدياً لصيرورة تاريخ الفلسفة ، فلم يعد النقد فى أعمالهما يتصف بعلامات النقد الثولتيرى للمسيحية وراثتها ، بل إنه يستوعب روحه ضمن تمثله للمستجدات الفلسفية التى وسعت مفهوم النقد الأنوارى ومكنته من أسلحة نظرية جديدة مواكبة للتحويلات المعرفية العامة ، والمعطيات التاريخية والاجتماعية المحلية (٢٨) مما أنتج محاولات فى النقد متجاوبة مع معطيات درس فلسفة الأنوار ، ومتجاوبة فى الوقت نفسه مع معطيات درس فلسفة الأنوار ، مما أنتج محاولات فى النقد متجاوبة فى الوقت نفسه مع بعض دروس الفلسفة المعاصرة والتاريخ المعاصر ، عمومياً وعالمياً .

أما فى المسائل السياسية المتعلقة بالدفاع عن بعض القيم الليبرالية ، كالديمقراطية والعلمانية وحقوق الإنسان ، فإن الجهود الفكرية التى بذلها العروى فى الدفاع عن دروس الحداثة المنتشعبة بالأنوار قد ساهمت فى بلورة دعوة سياسية تاريخانية ، مستوعبة لأهم دروس الأنوار فى المجال السياسى أما الجهود الفكرية التى ما فتئت تبذل فى هذا الباب ، فإنها تنبئ بإمكان تبلور فلسفة سياسة عربية قادرة على التفكير فى متطلبات حاضرننا .

إن ما يميز الكتابة السياسية المنتشعبة بفكر الأنوار اليوم عن الكتابات السياسية النهضوية ، هو عدم اكتفائها بالتبشير بقيم ومبادئ الأنوار ، إنها تتميز بتفكيرها فى الأنوار والفرق كبير بين استعادة التبشير واستعادة التفكير .

ومن الأمثلة الواضحة على الاستعادة المفكرة فى فكر الأنوار ، ما كتبه ويكتبه محمد أركون عن مفهوم العلمانية ، فهو يلح على ضرورة إعادة إنتاج هذا المفهوم عن طريق التفكير فيما لم تفكر فيه علمانية أوربا فى عصر الأنوار ، وذلك انطلاقاً من المتغيرات الفلسفية والإنتربولوجية التى لحقت مفاهيم السلطة والمقدس ، والعقل والأسطورة ، ومعناه أن الدفاع عن العلمانية أبحاثه لا يتخذ صورة استرجاع منجذب لنص مؤطر بحرفية منحلة فى الفكر والسياسة ، بل إنه يتخذ شكل جهد فى النظر يتوخى إعادة صياغة حدود المفهوم من أجل تطويره وجعله أكثر مطابقة للظرفية التاريخية الجديدة سياسياً وفلسفياً (٢٠) ومن المعلوم أن قوة أى فلسفة لا تقاس فقط بالمفاهيم التى تبدها ، بل تقاس أيضاً بالمفاهيم التى تجدد معانيها وتاريخ الفلسفة أكبر شاهد على ما نقول .

ونحن نعتقد أن العناية بمفهوم التسامح ، وفتح نقاش حوله وحول ضرورته فى تدعيم قيم النقد والحوار ، ويقلص من سيطرة الفكر النصى والأفكار القطعية، مما يساعد على إبراز نسبية القيم وتاريخيتها ، فيكون مفهوم التسامح بالإضافة إلى مفهومي النقد والعلمانية مناسبة لرفض الوثوقية فى الفكر ، والواحدة فى الرأى فى مجال السياسة .

هناك إذن أكثر من مجال نظرى يساعدنا على تعميق الوعى بالأنوار فى حياتنا العقائدية ، ووجودنا السياسى ، وذلك دون أن نكتفى بالتبشير بقيم التنوير «الأولى» ، ونحاول تعميمها كما لو كانت نصاً عقائدياً مغلقاً يعلو على الزمان .

إن الآلية العقلية التى وجهت تعامل المثقفين النهضويين مع فلسفة الأنوار، لم تعد آلية مناسبة لواقعنا الراهن ، وربما تطلب وجودنا التاريخى أساليب فى النقد والمواجهة لكل ظلمات حاضرننا ، أقوى وأصلب من الأدوات التى أنتجها عصر الأنوار فى القرن الثامن عشر ، وإذا ما كنا نعتقد بأن النضالات لا تزال

مستمرة فى أوربا فى مجال الدفاع عن حقوق الإنسان ، وفى تعزيز قيم الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ، أدركنا صعوبة الاختيارات التى نحن بصدد مواجهتها فى الوطن العربى ، فمعاركنا مركبة ، وجهودنا الفكرية تملك نفس الصفة ، ما دام وجودنا الثقافى مؤطر بثقافات تملك رصيذاً معرفياً نحن مطالبون بتعلم منطقته ، لنتمكن من معاصرته ، ومجادلته بالصورة التى تعمق وعينا ، وتسعفنا بالمساهمة فى تطوير وإغناء تاريخ الفلسفة .

\* \* \*

تعكس المواقف المذكورة جهوداً فكرية متواصلة فى استيعاب دروس فلسفة الأنوار ، ويبدو من سياق عرضها أننا أمام إرهاصات فكرية تنبئ بإمكان تبلور جهد فلسفى عربى فى استيعاب الأنوار (١٣) . ونحن نعتقد أن الوفاء لقيم الفلسفة يدعونا لا إلى استعادة الأنوار بدون أى احتباس نقدى ، ولا إلى رفضها بإسم الدفاع عن هوية عمياء ، وأصالة مطلقة . بل إلى التفكير فيها بالسلب ، ما دمنا نسلم بإيجابية روحها ، ومطابقة مبادئها لمتطلبات لحظتنا التاريخية الراهنة ، فلنعد النظر إذن فى أصولها ، فى إخفاقاتها ، فى نتائجها فى التاريخ والسياسة والفلسفة ولنعد النظر فى كل ذلك بالصورة التى تتيح لنا تأصيل النظر الفلسفى فى دائرة الفكر العربى المعاصر ، وهو أمر يمكننا فى حالة تحققه ، من الانتقال من أيديولوجية التنوير إلى فلسفة الأنوار .

## الهوامش :

١ - انظر توضيحاً لهذه المقدمة فى محاولتنا : الفلسفة والهاجس السياسى ، فى عوائق الكتابة الفلسفية المغاربية ضمن هذا الكتاب .

٢ - عبدالله العروى ، مفهوم الحرية ص ٣٦

٣ - فرح أنطون ، ابن رشد وفلسفته ، ضمن مؤلفاته الفلسفية ، ص ١٤١ دار الطليعة

١٩٨١

٤ - نفس المرجع ص ١٤١ - ١٤٢

٥ - نفس المرجع ص ١٣١

٦ - سلامة موسى ، هؤلاء علمونى ص ٢٣ ط ١٩٦٥ سلامة موسى للنشر والتوزيع .

٧ - راجع مقالة فؤاد زكريا / فى قضايا فكرية ع . ٨ / ١٩٨٩ وهى بعنوان :  
(العلمانية ضرورة حضارية) .

٨ - Gean - marie Domininach , Approches de la modernité ,  
page 7 - 8 .

٩ - جمال الدين الأفغانى : الأعمال الكاملة ، تحقيق وتقديم محمد عمارة ، المؤسسة  
المصرية العامة للتأليف والنشر ب - ت .

١٠ - سيد قطب ، المستقبل لهذا الدين دار الشرق ١٩٧٨ ، وهو كتاب أشبه ما يكون  
ببيان موجه بحماس إثبات جاهلية القرن العشرين .

١١ - رسالة الرد على الدهريين ، ص ١٦٢ مرجع مذكور .

١٢ - لسنج ، تربية الجنس البشرى ، ترجمة وتقديم حسن حنفى دار التنوير ١٩٨١ .

١٣ - نفس المرجع ، ص ١٠٩ - ١١٧

١٤ - » » » ١١٣

١٥ - نفس المرجع ، ص ١١٣

» » » - ١٦

» » » - ١٧ ١١٤

» » » - ١٨

» » » - ١٩

Jenn - Marie Dominach , Approches de la modernité', - ٢.  
page : 16 - 17 - 18 .

٢١ - يمكن مراجعة المبادئ العامة لفلسفة الأنوار ضمن مؤلف :

Ernest Caserio : la philosophie des lumières , Ed : Fayard  
paris 1970 .

٢٢ سلامة موسى ، ما هي النهضة ص ١٠٨

٢٣ - نحن نشير هنا إلى المحاكمة التي تلت صدور كتابي «الإسلام وأصول الحكم» ،  
لعل عبد الرزاق ، وكتاب «في الشعر الجاهلي» لطف حسين ، ويمكن مراجعة وثائق المحاكمة  
الأولى ضمن ملحق كتاب «الإسلام وأصول الحكم» تحقيق محمد عمارة المؤسسة العربية  
للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٢ . كما يمكن مراجعة الفصل الذي خصصته عفاف لطفى  
السيد عن العواصف والتيارات الفكرية في مؤلف : «تجربة مصر الليبرالية» ص ٣٢٥ - ٣٦٥  
المركز العربي للبحث والنشر القاهرة .

٢٤ - نحن نشير هنا إلى مؤلفات الأستاذ الجابري «نقد العقل العربي» وقد صدر في  
ثلاثة أجزاء ، وكتاب الأستاذ محمد أركون «نقد العقل الإسلامي» ويمكن مراجعة قراءتنا لهذين  
الكتابين في «مشروع النقد في قراءة التراث» حول التكامل في أعمال محمد عابد الجابري  
ومحمد أركون ضمن هذا الكتاب .

٢٥ - راجع بحثنا : الفلسفة والهاجس السياسي داخل هذا الكتاب .

٢٦ - راجع تقديمنا المفصل لكتاب «نقد العقل الإسلامي» لمحمد أركون في مجلة  
«الفكر العربي - المعاصر» ع ٣٧/١٩٨٦ ص ١١٤-١١٩ .



٢٧ - تكوين العقل العربى ص ٧ دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٤ .

٢٨ - Mohamed Arkoun , pour une critique de la raison islamique , Ed : Maisonneuve et Larose Paris 1984

٢٩ - Mohamed Arkoun , positivisme et traditions dans une perspective islamique , le kemalisme , in Diogene N= 127 Gallimard 1984 , Page 95 .

٣٠ - راجع بحثنا : درس العروى ، حول المشروع الأيديولوجى التاريخى فى كتابنا «التأويل والمفارقة» المركز الثقافى العربى ، ١٩٨٧ ص ١٢٥ - ١٥١ .

٣١ - نفس المرجع السابق ص ٩٨ - ١٠٧ .

٣٢ - يمكن تبين البعد التأصيلى فى النظر إلى قضايا الديمقراطية فى الفكر السياسى العربى فى ندوة «أزمة الديمقراطية فى الوطن العربى» التى نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ، ونشرت فى كتاب بنفس العنوان سنة ١٩٨٤ ضمن منشورات المركز كما يمكن مراجعة مناقشتنا لأعمال هذه الندوة فى كتابنا : التأويل والمفارقة ص ٥٥ - ٧٥ - مرجع مذكور .



**٤ - صعوبات الاستعمال المنهجي  
للمفاهيم  
في نقد قراءة الطيب تيزيني  
وحسين مروة للفلسفة  
الإسلامية  
محاولة إبستمولوجية**



## ( ١ )

١ - إذا انطلقنا من التسليم بأنه أن الأوان للتفكير فى صياغة منظومات التأويل (١) ، وإنتاج المعنى ، المنجزة فى مجال البحث التاريخى بمعناه الواسع ، فإن هذه المسألة تزداد إلحاحاً ، نظراً للتداخل الكبير الذى ما فتأ يحصل بين مجالات البحث التاريخى ، والبحث فى مختلف العلوم الإنسانية على وجه العموم . وإذا كان من الثابت اليوم أن تداخل عناصر المناهج ، وأدواتها المفهومية ، والمصطلحية ، وقوانينها ، فى مجالات المعرفة المختلفة ، مسألة إيجابية ومخصصة (٢) ، فإن الاستمرار فى إنجاز عمليات النقل المفاهيمى ، تقتضى أن نتوقف بـ الحين والآخر ، لمسألة طريقة وكيفية الاستعارة المفاهيمية ، من أجل إبراز أنماط القيم المعرفية ، والإبستمولوجية ، التى تتولد عن عمليات النقل والاستعارة .

تزداد أهمية هذه المسألة - التى تقصى الإبستمولوجى - عندما نعرف أنه بدأت ترتفع فى السنوات الأخيرة ، فى مجال العلوم الاجتماعية بالذات ، مسألة حدود المناهج ، وحدود القوانين والمفاهيم ، فى بناء الظواهر المدروسة ، من منظور تطغى عليه الحماسة الأيديولوجية الداعية إلى خصوصية أصلية (٣) . مما يجعل البحث الإبستمولوجى ، مطلباً تقتضيه ضرورة معاينة أساليب وطرق البحث والتفكير ، وذلك من أجل المساهمة فى ابتكار القوالب المنهجية ، والنماذج النظرية الملائمة ، والمطابقة للظواهر موضوع البحث . وهو ما يعنى أساساً مباشرة حوار ثقافى خلاق ، حوار يسلم بأن منطق الجغرافية ، والتفرد العرقى ، لا يقدم البحث العلمى ، شريطة ألا نكتفى بالنقل للناسخ بدون حساب ، ونساهم فى

الإبداع ، والإنشاء ، والتأصيل النظرى . ولا شك فى أن هذه الممارسة الإيستمولوجية شاقة ومعقدة ، إلا أن المشاركة فيها بواسطة إنجاز أبحاث جزئية متعددة ، تكفل لنا التغلب على كثير من العوائق النظرية ، فى سبيل وضوح ملامح وجود المفاهيم ، ومن أجل نجاعة الطرق والمناهج ، التى نستعين بها فى فهم الظواهر والأحداث والأفكار .

ضمن هذا الإطار ، نريد أن نقدم مساهمة أولية فى باب تأمل صعوبات وعوائق توسيع دائرة تداول المفاهيم والمناهج ، فى مجال قراءة التراث العربى الإسلامى ، عسى أن تتمكن من تدارك التكرار اللامجدى ، والنسخ الأعمى ، ونساهم فى نهاية التحليل فى الدفاع عن مبدأ الثقافة المنهجية المعرفية ، داخل دائرة الأبحاث العلمية ، من أجل مزيد من توليد المعانى والرموز فى أفق نظرى بلا حدود .

٢ - سينصب اهتمامنا ، فى هذا البحث ، على جانب من جوانب حضور الفلسفة الماركسية ومفاهيمها فى مجال دراسة التراث الإسلامى . وإذا كان الأستاذ عبدالله العروى ، قد أبرز فى مقالته «الماركسية اتجاه الأيديولوجية الإسلامية» (٤) أهمية تعريب المفاهيم الماركسية ، بترجمتها الفعلية فى دراسات عينية حول جوانب متعددة من تاريخنا وواقعنا ، فإن الدراسات التى سنهتم بمسألة طريقة أستعارتها لمفاهيم المادية التاريخية ، تندرج فى هذا الإطار ، إطار ترسيخ مفاهيم الفلسفة الماركسية فى الفكر العربى المعاصر .

يرمى بحثنا إلى الإجابة عن سؤالين أساسيين هما :

ماهى حصيلة قراءة كل من الطيب تيزينى وحسين مروة للفلسفة الإسلامية ؟ .

ثم ما هى طريقة تعامل هذين الباحثين مع الأدوات المنهجية التى استعانا بها أثناء إعادة ترتيبهما لمحاور ، وقضايا تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية ؟

نريد إذن فى ضوء محاولة الإجابة عن السؤالين السابقين أن نفكر فى مسألة إبستمولوجية مهمة تتعلق بنمط الاستعارة المفاهيمية المنتجة ، ونقصد بذلك التفكير فى عملية توظيف المفاهيم ، ونتائج هذا التوظيف المعرفية العامة ، والإبستمولوجية الخاصة .

يتعلق الأمر إذن ببحث يتوخى غاية إبستمولوجية . وفى سبيل هذه الغاية يقارب نصوصاً ومفاهيم محددة ، وذلك من أجل مراكمة أبحاث جهوية متعددة ، تتيح لنا تعميق التفكير فى صعوبات نقل واستعارة المفاهيم ، لنتمكن فى مجال التأريخ للفكر الإسلامى ، من مراجعة طرق استخدامنا للمناهج ، وأدواتها المفهومية ، ونعمق مجال الدرس ، وأساليب الدراسة .

ولابد من الإشارة فى نهاية هذا التقديم إلى أن المسألة التى نرومها ليست سهلة تماماً ، وذلك لأن متابعة عملية التأريخ فى بعدها المنهجى ، مسألة فى غاية التعقيد ، خاصة أنها تفترض وعياً مركباً ، وعياً بمادة التأريخ ، (المدارس والإتجاهات الفلسفية) ، وعياً بأصول وأوليات المفاهيم المنهجية ، الموظفة بغاية استعادة التراث ، (أهم المفاهيم التى تشكل نسيج المادية التاريخية) .

## ( ٢ )

١ - لقد أصدر كل من الأستاذ الطيب تيزينى ، والأستاذ حسين مروة ، مؤلفاتهما حول تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية فى السبعينيات ، ودشنا عن طريق هذا الصدور بداية جديدة فى التأريخ للفلسفة الإسلامية الوسيطية . وقد حاولا معاً ليس فقط كتابة تاريخ جديد لجانب من تراثنا ، بل مارسا أيضاً تصفية حساباتهما بصورة جذرية ، مع الكتابات السابقة عليهما ، ابتداءً من

الكتابات الوسيطية ، المتمثلة فى مصنفات المذاهب والفرق والطبقات ، إلى كتب المحدثين ، وعلى رأسها كتابات مصطفى عبدالرازق ، وإبراهيم مذكور ، وعلى سامى النشار ، وكذلك كتابات بعض المستشرقين . مقابل ذلك امتازت كتابتهما بالدفاع عن منهجية جديدة ، فى قراءة التراث الفلسفى الإسلامى ، بالإضافة إلى تحديدهما ، لمنطلقات سياسية جديدة ، هى التعامل مع هذا التراث .

نحن معهما نتابع بشجاعة وحماسة كبيرة ، ما بدأه مصطفى عبدالرازق (هـ) ، من ضرورة اتخاذ موقف من التراث ، ومن الماضى ، لمواجهة معضلات الحاضر ، ومعهما أيضاً نتابع درجات تطور الوعى المنهجى ، فى مقاربة الفلسفة العربية الإسلامية .

لن نفصل القول فى الاستراتيجية السياسية الموجهة لتعاملهما مع التراث ، فهذه قضية لا ترتبط بالضرورة مع منطلقات بحثنا . إننا سنهتم بالدرجة الأولى بأسلوب تعاملهما مع الجهاز المفاهيمى ، الذى يسلمان بنجاعة النظرية ، والتاريخية ، فى تناول موضوع دراستهما - التراث الفلسفى الإسلامى - كما أننا لن نقدم محتوى أعمالهما ، ولو فى صورة مختزلة ، لأننا نفترض بحكم انتشار أعمالهما ، متابعة وإمام القارئ بخلاصاتها ، وهذا لا ينفى أن عملنا يتضمن بعض الإشارات المقتضبة إلى نتائج هذه الأعمال ، بناء على مقتضيات التحليل والمناقشة ، وليس بغاية التلخيص والعرض الخالص .

لابد من الإشارة فى هذا السياق ، إلى أننا لا نجادل فى أهمية مؤلفات هذين المفكرين ، سواء بحكم ظرفيتها ، (ملايسات التأليف التاريخية والسياسية)، أو بحكم توجهها العام ، ( الاختيارات السياسية للمؤلفين ) ، فتلك قضايا لا علاقة لها بهذا البحث ، ويمكن أن تشكل موضوع دراسات أخرى . إننا لا نقلل من قيمة الإعتبارات السابقة ولكن من داخل الإيمان بأنهم مبادئها - التى أصبحت ملكاً



معرفياً مشاعاً - نمارس قراءة تتوخى إعادة النظر فى الأسلوب اليقيني ، والقطعى ، الذى طغى على تعامل عند كبير من الماركسيين مع المادية التاريخية ، فى روحها ومفاصلها المنهجية .

٢ - نجد فى كتاب الطيب تيزينى الرئيسى (ومشروع رؤية جديدة للفكر الإسلامى فى العصر الوسيط» (٦) ، مقدمة تحت عنوان : «على طريق الوضوح المنهجى» (٧) ، وهى مقدمة تصرح بوجهة الدراسة والمشروع ، وتحدده فى البحث فى الفكر الفلسفى الإسلامى المادى ، كما توضح منطلقات الباحث فى التاريخ ، حيث يسلم «بوحدة التاريخ الإنسانى» ومبدأ «النمو الذاتى للتاريخ» (٨) . وأثناء عرض الباحث لموضوع بحثه ، ومنطلقاته فى هذه المقدمة ، نكتشف طريقة غريبة فى الكتابة ، فهو يلوح بمفهوم «العلم» ومفهوم «المنطق اللاتارىخى» (٩) ، بدون أى حصر أو تدقيق منهجيين ، وبدون أى إحالة تشير إلى الإطار المرجعى ، الذى يفكر الباحث انطلاقاً منه ، أو بواسطته ومن خلاله .

أما ملاحظاته التقويمية للدراسات التراثية ، التى سبقت أعماله ، فإنها تركز على نفى قيمة هذه المحاولات ، من أجل تبرير صلاحية منهجيته الجديدة ، فى قراءة التراث (١٠) . وعندما نقرأ الجزء الأول المفصل من مشروعه الكبير «من التراث إلى الثورة» (١١) ، نعثر على ما يسميه «دليل عمل منهجى عام فى البحث التراثى» (١٢) ، وهو دليل يعتمد على المادية التاريخية باعتبارها حسب تعبيره «آلة علمية» (١٣) .

أما فى كتاب حسين مروة «النزعات المادية فى الفلسفة الإسلامية» (١٤) ، فإننا نجد نفس المشروع ، وفى إطار مقدمة منهجية طويلة ، نعثر على موجّهات التأريخ وأسسها ، كما نعثر على موقف الباحث من المناهج ذات التوجه السائى ،

والمناهج الاستشراقية ، والمناهج التاريخية اللاجدلية ، حيث ينتقد نماذج من المؤلفات السابقة ، ويدعو إلى تبني تطبيق مفاهيم المنهج المادى التاريخى ، الذى يكفل وحده بالمفرد ، معرفة مراحل تاريخ الفلسفة ، ويساعدنا على كشف المحتوى المادى التقدمى للفلسفة الإسلامية (١٥) .

تتجه المقدمات المنهجية - التى قدمناها بشكل مختزل فى الفقرات السابقة - فى الكتابين نحو التصريح بالمنهجية المتبعة فى البحث . وإذا كنا نسلم بأن مقدمات الأبحاث تكتب بعد الانتهاء من هذه الأبحاث - رغم أن التقليد يضعها فى البداية ، فى المقدمة - فإننا نشك فى أن مقدمات أبحاث تيزينى ومروة قد وضعت بعد الانتهاء من أبحاثهما ، وذلك لأنها لا تستثمر مجهود عظيم فى البحث ، ولا تحيل إلى صعوباته ، بقدر ما تقرر مجموعة من المقدمات والمسلمات ، وبصورة قطعية وجازمة من هنا فقرما الإستمولوجى (١٦) .

وإذا كان من المعروف أن المقدمات المنهجية للبحث العلمى فى مجالات المعرفة المتنوعة ، تتيح للدارسين إمكان مساواة المفاهيم ، والقواعد ، والمسلمات ، والمصطلحات ، وأنماط التحليل ، من أجل بنائها وإعادة بنائها ، فى ضوء إجراءات البحث ، وعملياته الداخلية ، فنحن فى هذه المقدمات أمام مواقف نقدية من مناهج سابقة ، وأمام أوليات للبحث ، لكننا أبعد ما نكون على طريق الوضوح المنهجى ، أو التأصيل المنهجى ، أو التفكير فى المفاهيم ، وفى سبل الاستعانة بها ، من أجل إنتاج دراسات جادة تتيح لنا نقداً جذرياً للتراث ، أو تتيح لنا لذة كاملة فى الإلتفاف نحوه ، والإلتفاف إليه .

٣ - تقدم المحاولات التأريخية التى نحن بصدد التفكير فيها ، نموذجاً لمشروع يروم تأويل الحضور الفلسفى فى الإسلام ، من منطلق مادى تاريخى .

وبناء عليه ، فإن هذا النموذج التأويلي المنجز يسلم بتأويلات الرؤية الفلسفية المادية للتاريخ ، هذه الرؤية التي تدافع أولاً وقبل كل شيء ، عن تاريخية الممارسة النظرية للإنسان ، كما تؤكد على التفاعل الجدلي لهذه الممارسة ، مع آليات الصراع التاريخي المتعددة والمتنوعة .

وضمن منظور هذه الفلسفة ، تتم عملية استدعاء مجموعة من المفاهيم ، من أجل استنطاق البنية التاريخية الإسلامية بواسطتها ، بغية كتابة تاريخ جديد للفلسفة الإسلامية ، ولعلنا فعلاً - ومن خلال أعمال الباحثين - أمام طموح مشروع ، شريطة أن يعى نسبيته ، ويعى واحدته ضمن أفق التنوع المنهجي اللامحدود ...

يمكن أن تصوغ النمط التحليلي الذي سنعتمده في مناقشتنا لبعض الجوانب المنهجية في هذه الأعمال ، في القضايا الآتية :

١ - التحليل ومرجعية التحليل .

٢ - التاريخ بين الحضور والغياب .

٣ - المفاهيم ، استعارة أم تأصيل :

لنحاول تقديم عناصر هذا التصميم ، بصورة تجعلنا نقف أساساً على آلية الاستعارة المفاهيمية المنجزة في أبحاث تيزيني ومروة ، حول تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية ، ونقف في الوقت نفسه على حدود قراءتهما .

**أولاً - التحليل ومرجعية التحليل**

تحضر في كتابة تيزيني ومروة ، جملة من نصوص ماركس وأنجلز ، وهي تحضر باعتبارها شهادات قاطعة ، وسائل للحسم ، وقد لا نختلف كثيراً في هذا

الأمر ، ما دامت القناعة الفلسفية مسألة اختيارية ، لكن الأمر الذى يستوجب الخلاف هو حضور النصوص برسومها ، وغياب محاوره محتواها ، فلا يمكن أن نجد فى مسلمات الرؤية بدون أن يحصل أى تغيير يذكر فى عمليات الاستدلال والتحليل ، وصياغة الأبنية الفكرية والتاريخية . فماذا تعنى استعادة النص الماركسى عند محاولة دراسة التراث العربى الإسلامى فى جانبه الفلسفى ؟

نحن نعتقد أن المعنى الأساسى لهذه الاستعادة ، يتحدد فى المسعى التأسيسى الرامى إلى إخصابه ، وإخصاب مفاهيمه ، ويحصل الإخصاب بالتوسيع أو التضيق ، أو النفى ، وهو ما يدعم الاستدعاء الإيجابى الذى لا يكتفى بالشهادة والقياس ، والنفحة الإطلاعية الملعنة ، بل يفعل فى البنية المدروسة ، بالصورة التى تولد فعلاً رؤية جديدة للتاريخ ، ولإنتاج النظرى عبر التاريخ .

لقد ظلت مرجعية التحليل فى الأبحاث التى نحن بصدها ، جملة استشهادات ، ولم ينتج عن هذه الاستشهادات أى تحول نوعى فى بنية الظاهرة المدروسة ، فعندنا لنكتب من جديد تاريخاً يرسم الملامح العامة لمجتمع الجزيرة العربى الجاهلى ، ثم لمرحلة ظهور الإسلام ، ثم عرضاً لنماذج من أعلام الفكر الفلسفى ، وبعض المذاهب الكلامية ، والمواقف الصوفية ، بواسطة قراءة تخلت عن التاريخ ، وظلت تذكرنا بكثير من الرتابة فى القول ، فى مقدمات الفصول ، وخلاصاتها ، وفى فقرات الربط ، وعند الاستشهاد ، بالتاريخ الجدلى المادى للفلسفة الإسلامية باعتبارها حلقة ضمن صيرورة تطور الفلسفة المادية عبر التاريخ .

نقف فى دراسة حسين مروة على التصميم الآتى :

١ - دراسة الفلسفة العربية الإسلامية ، انطلاقاً من كونها نتاج عملية

تاريخية .

٢ - كشف النزعات المادية التي أهملتها الدراسات السابقة داخل هذه الفلسفة .

٣ - دراسة التراث الفلسفى من خلال القضايا التراثية ، لا من خلال الشخصيات .

٤ - تحديد مراحل الفكر العربى على أساس تطوره نحو الفلسفة ، وذلك من خلال مرحلة ما قبل النظر الفلسفى ، ثم بذور النظر الفلسفى الكلامية ، وحركة الفلسفة المستقلة (١٧) .

يتضح من المخطط الدراسى السابق أن الأسس الفلسفية الموجهة للاختيار الفلسفى عند الباحث ، لم تولد أى تطوير لأساليب تحليل قارة الفلسفة العربية الإسلامية ، والتاريخ الذى واكبها ، وحدود شروط إنتاجها الواقعية والمعرفية ، بل أكثر من ذلك ، نلاحظ أثناء تحليل الموضوعات المذكورة ، أن الباحث لم يتجاوز الأسئلة التقليدية ، والأطروحات المتداولة ، فظلت تحكم منطق تحليله لبعض متون الفلسفة الإسلامية قضايا من قبيل :

يونانية الخطاب الفلسفى الإسلامى ، الفلسفة كتنوير للجدل الكلامى . فلم تخلص الفلسفة الجديدة المسلم بنجاحاتها فى الرؤية ، ومنهجها ، ومفاهيمها فى التحليل ، من أسئلة القدماء ، وأسئلة المحدثين المنتقدة بشدة كبيرة فى المقدمات المنهجية ، ولم تسمح الأرضية المرجعية المعتمدة على نصوص ماركسية مستلة من سياقها ، أو على ملخصات «العلماء السوفيات» فى تاريخ الفلسفة ، ومصنفات الاقتصاد الماركسى المدرسية والقطعية (١٨) ، على تغيير أساليب التحليل . إنها لم تغير بنية مقارنة الفلسفة الإسلامية ، رغم كل المفاهيم المرسومة على سطح الكتابة فى الأبحاث موضع الدرس .

نريد أن نوضح هنا أن قناعة المؤلفين بالمادية التاريخية ، لم تولد فى أبحاثهما إطاراً جديداً مبتكراً فى التحليل ، بقدر ما كانت مبدئية فى مقدمة الأبحاث ، وظلت كذلك فى نهايتها ، يعود السبب فى ذلك - فى اعتقادنا - إلى تغييب أسئلة التأصيل النظرى ، هذه الأسئلة التى تبيح وتتيح إمكان اختبار القناعة المنهجية فى التحليل ، ويكون ذلك بالتخلص من نصوص الاستشهاد ، واستحضار روحها المنهجية ، ونقصد بذلك استبعاد النص الماركسى من مستوى الخطاب الجاهز ، واستحضار روح وآلية التفكير الماركسى ، فى مستوى الممارسة ، عن طريق إعادة إنتاج خطابه ، بناءً على معطيات تاريخية عينية ، وهنا نصل إلى العنصر الثانى ، حيث يمكن أن نتساءل عن طبيعة المادة التاريخية التى لحمت مصنفات تيزينى ومروة ، مادام التاريخ هو بؤرة القراءة ومركزها فى هذه المصنفات .

## ثانياً : التاريخ بين الحضور والغياب

عندما نسلم بأن استراتيجيات المادية التاريخية فى مجال البحث العلمى عموماً ، تتجه نحو التاريخ ، باعتباره مجال استقطاب كل فاعليات الإنسان فى الوجود ، فإن اعتماد هذه الاستراتيجية ، تقتضى المعالجة الدقيقة والجادة لمحتوى ومادة التاريخ فى صيرورته وتفاعله ، فى تطوره وانكفائه ، من أجل بناء تاريخى ، مطابق لتناقضات الوجود التاريخى الحى ، ضمن هذه الأفق يوضح مؤرخ الفلسفة اليونانية الكبير جون بيبير فرنان (١٩) فى معرض حديثه ، عن الإطار التاريخى للمجتمع اليونانى القديم أن مفهوم نمط الإنتاج العبودى الذى تم ترسيمه فى خطاطة أنماط الإنتاج الخماسية فى الأدبيات الماركسية الوثائقية (٢٠) ، لا يصلح لتفسير البنية الاقتصادية اليونانية فى القرن الخامس قبل الميلاد . وإن مفاهيم أخرى مثل الصراع الطبقي ، والتناقض الرئيسى ، والتناقض الثانوى ، وأولوية الاقتصادى فى التحول التاريخى الخ .. لا يمكن

نقلها كما هي من سياق تحليل ماركس للمجتمع الرأسمالي ، من أجل معرفة بنية التاريخ اليوناني الكلاسيكي القديم ، وهو يدافع عن رأيه من خلال بحث تاريخي ، يستعين بأحدث الدراسات التي أنجزت حول التاريخ الاقتصادي والسياسي والفكري ، لبلاد اليونان .

نقف في هذا المثال على كثير من الجرأة والشجاعة في البحث ، خاصة أن الباحث جون بيير ثرنان ينجز تحليله انطلاقاً من المسلمات الكبرى للمادية التاريخية ، وأهمها في نظرنا المسلمة الكبرى والعامة المتعلقة بتاريخية الممارسة النظرية للإنسان ، إنه يبرز في البحث الذي أخذنا منه المثال السابق ، أن نصوص ماركس وإنجلز المتعلقة بالتاريخ القديم ، لا يمكن استعادتها كما هي ، فقد كانت تقدم خطاطات سريعة حول المجتمعات القديمة ، وغالباً ما كانت تلك الخطاطات تنتج وتنجز حسب مقتضيات التعميم في بعض لحظات الصراع السياسي والأيدولوجي بالإضافة إلى أن نواتها المعرفية تعكس درجة من درجات تطور المعرفة التاريخية بالمجتمعات القديمة في القرن التاسع عشر ، ومن هنا .. فإنه لا يصح أن تستعاد تلك النصوص ، والمفاهيم التي تضمنتها كما هي ، وبدون أي احتراس ، ويبقى أمام الباحثين المقتنعين بنجاحة الرؤية المادية للتاريخ، أن يحاولوا بناء التاريخ القديم ، في ضوء ملايسات وشروط الصراع التاريخي القديم وليس انطلاقاً من معطيات التاريخ المعاصر المتعلقة بنمط الإنتاج الرأسمالي ، أو المتعلقة بخطاطة تاريخية عامة وسريعة بدون الإلتفات إلى ظرفيتها ، وحدودها النظرية ، إنني استعرض هذا المثال لأظهر أن المؤرخين الماركسيين الغربيين الذين يتبنون روح الماركسية ، وليس نصوصها ، يمارسون تحليل تاريخ أوروبا ، من أجل بناء أنماط إنتاج مطابقة للتاريخ ، رغم أننا نقول في العادة وتحت ضغط التعميم الأيدولوجي الصرف ، إن التحليل الماركسي الذي يستوحى التاريخ الأوربي قد صاغ قواعده ، بناء على استقصاء شمولي

لهذا التاريخ ، فماذا نقول عندما يتعلق الأمر بالتاريخ العربى الإسلامى ، الذى لم يكن وارداً فى ذهن ماركس وانجلز لحظة صياغة الفرضيات والمفاهيم ؟ ماذا نقول عن المراحل التاريخية التى لم تكن واردة بصورة عينية ، لحظة تأسيس مفاهيم المادية التاريخية (٢١) ؟

ينتج عن هذا السؤال أن مطلب كتابة تاريخ الإسلام ، مطلب أساسى ، بالنسبة للمؤرخ الذى يلتزم بأوليات ومفاهيم المادية التاريخية ، وذلك من أجل ألا نستعيد تاريخاً مغايراً ، ونسقطه بدون احتراس على تاريخنا الفعلى ، الذى يطويه النسيان والتناسى .

ومن الغريب حقاً أن خطاب الباحثين تيزينى ومروة ، لا يحترس تماماً فى إطلاق مفاهيم المادية التاريخية ، على الحقبة الإسلامية ، ولا يشكك فى نسبة هذه المفاهيم الفعلية ، من أجل المساهمة فى توسيعها وإعادة صياغتها ، مما أدى ويؤدى إلى استعادة خطاطة تاريخية عامة ، وتعميمها بدون مراعاة أصول البحث فى الكتابة التاريخية .

إننا نعتقد أن التاريخ ليس مجرد تحقيق جاهز وفارغ ، ولعل التحقيق المعتمد على مفاهيم عامة من قبيل نمط الإنتاج ، التشكيلة الاجتماعية ، صيرورة وحتمية التناقض ، قابل للتوسيع والتعديل ، بناءً على مقتضيات التاريخ ومن هنا فإن المفاهيم المذكورة ، لا يمكن تعميمها بنسخها . إن التعميم المنتج ، هو التعميم الذى يكون بواسطة التأصيل النظرى ، القادر على صياغة النماذج النظرية المتعددة ، من أجل إغناء وتوسيع الرؤية المادية للتاريخ ، حسب متطلبات الصراع التاريخى الفعلى ، القديم والمتواصل .

ولعل من بين النتائج التى تترتب عن التصور السابق ، أن مبدأ التاريخية لا يمكن أن يظل مجرد تحقيق اقتصادى ، زمانى ضيق (٢٢) ، بقدر ما سيصبح



أكثر اتساعاً ، وذلك فى تجاوب تام مع بعض نصوص ماركس التى يتم فى الغالب السكوت عنها ، والتى كانت تعبر عن تردده فى مسألة تطابق الفكر مع الأنماط الاقتصادية ، وبصورة ضيقة وآلية (٢٣) ، وهو ما يعنى اتساع مجال التحقيق التاريخى ، وتنوع أسسه ، أى عدم خضوعه الحتمى لنمط الإنتاج الاقتصادى السائد فى زمنه .

كانت الملاحظات السابقة تتعلق ببعض الأوليات المنهجية التى تعتقد بضرورة التفكير فيها ، قبل وأثناء وبعد ممارسة البحث التاريخى ، فى بنية القول الفلسفى فى الإسلام ، وإذا ما أضفنا إليها ما نعرفه من آراء بعض الباحثين المعاصرين المختصين فى الكتابة التاريخية ، حول واقع الكتابة التاريخية ، حول الإسلام وعصوره ، حيث يظهر هؤلاء أن الدراسات التاريخية العلمية والجادة حول التاريخ العربى الإسلامى لا يتجاوز عددها أصابع اليدين (٢٤) ، أدركنا الصعوبات الجمة التى تعترض مؤرخ الفكر المقتنع بقواعد المادية التاريخية ، لكن ما العمل فى هذه الحالة ؟

سنجيب عن هذا السؤال ، من خلال متابعة نماذج من التحليل التاريخى المتبع فى الأبحاث التى نحن بصدها ، وفى الوقت نفسه سنحاول تقديم نماذج وأمثلة من المفاهيم الموظفة أثناء هذا التحليل ، من أجل معرفة حدود ومحدودية قراءة تيزينى ومروة لتاريخ الفلسفة العربية الإسلامية .

### ثالثاً - المفاهيم : استعارة أم تركيب ؟

تطفو فوق سطح أبحاث الطيب تيزينى وحسين مروة ، مفاهيم متعددة ، تحيل إلى بعض نصوص ماركس ، بتوسط شروح ومختصرات مدرسية ، ومن النادر أن نجد فى كتابتهما متابعة معمقة للجهاز المفاهيمى الذى بلورته المادية التاريخية ، وفى الحالة التى يقدم فيها حسين مروة مثلاً ، بعض التحفظات حول المسائل المنهجية ، فإنه سرعان ما يقفز على هذه التحفظات ليؤكد نفس القضايا التى أثارها (٢٥) .

ومن أهم المفاهيم المستعملة فى المؤلفات المدروسة ، يمكن أن نذكر العينة الآتية :

١ - علاقات الإنتاج الأبوية البدائية .

٢ - العبودية .

٣ - الأرستقراطية التجارية .

٤ - الإقطاع .

٥ - الجماهير .

٦ - الديمقراطية .

وتحليل هذه المفاهيم إلى البنيات الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية .

٧ - المثالية والمادية ، هما مفهومان يحيلان إلى حقل المذاهب الفلسفية .

لا بد من الإشارة هنا إلى أن استعمال هذه المفاهيم فى سياق التحليل ، لا يعتمد أى توثيق يدعم التحليل أو يبرره ، فما أكثر الصفحات التى يثير فيها الباحثان مشاكل وقضايا تاريخية ونظرية فى منتهى الأهمية ، بدون اعتماد أى إطار مرجعى يذكر ، سوى سيولة الخطاب ، المتضمن لمجموعة من المفاهيم ، وبدون أى حصر أو تحديد ، يعين ويدقق معانى وحدود المفاهيم والمصطلحات .

لنقرأ على سبيل المثال لا الحصر النماذج التحليلية الآتية ، يقول الطيب تيزينى : «ان المجتمع العربى فى حقبة الجاهلية» كان مجتمعاً قبلياً بطيريكياً ، ثم تطور فى الحقبة العربية الإسلامية إلى الإقطاعية ليس عبر العبودية ، وإنما بشكل مباشر ، أى دون أن يمر بالعبودية ، من حيث هى نظام اجتماعى متكامل ومتطور وشامل والعبودية وجدت كذلك فى المجتمع القبلى ذلك ، ولكن كظاهرة خاضعة للأطر الاجتماعية الاقتصادية العامة لهذا المجتمع» (٢٦)

ثم لنقرأ نموذجاً ثانياً لحسين مروة ، حيث نعثر على استعمال الباحث لنفس المفاهيم المستعملة فى الفقرة السابقة ، «وكان النظام الاجتماعى هو النظام الإقطاعى الممتد من العهود الساسانية والبيزنطية ، وقد أدخل الأميون - وعلى رأسهم معاوية - عنصراً جديداً فى توحيد سلطة الإقطاع ، إذ أصبح هو وأسرته من كبار الملاك العقاريين مستخدماً العبيد الأحرار فى العمل الزراعى»(٢٧).

ونحن لا نعتقد أن الفقرات المذكورة تتيح معرفة محددة ومضبوطة ، ولعل المفاهيم التى تتضمنها من قبيل إقطاع ، عبودية مجتمع أبوى ، عبيد ، لا تعتمد أى سند تاريخى لا فى المتن ولا عن طريق الإحالة . كما أنها لم تضبط ، ولم تدقق فى سياق التحليل التاريخى المنجز فى الأبحاث المدروسة ، ومعناه أننا أمام تسيب واضح فى إطلاق المفاهيم .

ومن أجل نسخ ثنائية الصراع الطبقي الرأس مالية ، يتحدث مروة عن صراع الارستقراطية التجارية مع الصعاليك (٢٨) فى الجاهلية ، ويحدث تيزينى عن صراع تجار وسدنة الكعبة مع الأرقاء (٢٩) ، ويتم انطلاقاً من المفاهيم العائمة السابقة تصوير مجتمع الجاهلية داخل دائرة من الصراع الثنائى الحاد بدون أى تحليل عينى يذكر .

إننا نعتقد أن العام العينى ، وهو مجال التاريخ ، أوسع بكثير من المجرّد العام ، حسب المنظور التاريخى النسبى ، أما الصبغة الإختزالية للصراع ، فإنها لا تقدم الكتابة التاريخية ، ومن هنا فإننا نتصور أنه من الصعوبة بمكان إنجاز دراسات حول التاريخ العربى الإسلامى ، بالاعتماد على مفاهيم المادية التاريخية ، ما دامت لم تتوافر الدراسات المونوغرافية المعمقة والدقيقة ، حول

وضع الأرض فى تاريخ الإسلام ، وضعها القانونى والاقتصادى ، ثم بنية المدن والمناطق الحضرية الإسلامية فى علاقتها بالأمصار البعيدة ، وكذلك بنية السلطة السياسية والمعرفية ، التى تكونت عبر سلسلة تاريخية طويلة ، وكذلك معرفة بنية أنماط الكتابة الرمزية والخيالية .. إلى غير ذلك من القضايا التى يمكن أن تساعد على معرفة معمقة بالتاريخ الإسلامى ، ولعل المساهمة فى إنجاز أبحاث تاريخية جزئية حول هذه البنيات الأساسية : الأرض والمدينة والمعرفة والسلطة والخيال ، (٣٠) تساعدنا عند توافرها على تحديد نمط الإنتاج التاريخى النظرى المتشكل فى المجتمعات العربية الإسلامية .

وفى غياب تحقق وفرة فى الدراسات المذكورة يتم الحديث فى مؤلفات تيزينى ومروة عن أنماط القول الفلسفى الإسلامى بنقس أسلوب الحديث عن الأبنية التاريخية التى ولدت هذه الأنماط .

فلم تفكك الأبنية الفلسفية الإسلامية فى الأبحاث المذكورة ، لا من حيث بنيتها الإستدلالية ، ولا من حيث نوعية الروابط التاريخية ، التى لحمت تشكّلها النظرى التاريخى ، ومقابل ذلك تم تغليب آليات القراءة الأيديولوجية الإسقاطية ، على آلية مسألة النصوص نظرياً وتاريخياً ، من أجل كشف بنية التوتر التى حددت فى نظرنا جانباً من معانى تبلور وتفسخ القول الفلسفى فى الإسلام .

لنقرأ مرة أخرى نماذج تحليلية مما كتب هذان الباحثان عن تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية .

يقول حسين مروة : « استعمل المنطق اليونانى سلاحاً طبقياً بيد كادحى البصرة ، كشغيلة الأرض والعبيد ... والمعدمين والمستخدمين فى الصناعات الحرفية » (٣١) .

ثم يقول نفس المؤلف متحدثاً عن فلسفة الفارابى : «تعبيراً عن أيديولوجية الفئات النامية فى المدينة والريف ، كفئات الصناعيين الحرفيين ، ومتوسطى التجار ، وشغيلة الخدمات الاجتماعية المستجدة فى نظام المدينة المزدهرة خلال العصور العباسية» (٣٢) .

لنتابع قراءة نفس البنية التحليلية فى فقرة أخرى للطيب تيزينى : «إن قانونية التطور الفكرى الإسلامى العربى تكمن فى عملية تكون وتطور إتجاهين فكريين رئيسيين متعارضين ، قليلاً أو كثيراً هما الأرثوذكسى ويضم الفلسفة المثالية ، والإيمانية الدينية الغيبية ، والمادى الذى يقيم مع العقلانية الهرطقية ، ومع الجدلية رباطات وثيقة» (٣٣) .

لن نعلق بشكل مباشر على الفقرات التى قدمنا ، ونكتفى بالقول بأن تصنيف تاريخ الفلسفة الإسلامية فى المؤلفات موضوع البحث ، لا يتم التمييز فيها بين بعض جمل ماركس وإنجلز ، ذات الصبغة السجالية المؤقتة ، والعارضة ، وبين الموقف التاريخى الفعلى . وسيظل تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية فى حدوده الرحبة ، أكبر من خطاطة ثنائية تحزب الفلسفة عبر كل العصور ، وبشكل قسرى ، مفترض بصورة قبلية ، ودون أى دعم تاريخى . ومن هنا فإن أغلب الكتب التى أنتقدتها كل من تيزينى وعروة تظل مقاربتها لتاريخ التيارات الفلسفية الإسلامية ، أكثر وضوحاً ، وأكثر تماسكاً ، من أبحاثهما .

فلا يعقل أن نقرأ مؤلفات الفارابى وابن سينا فقط من أجل البحث عن ماديتهما ، وفى سبيل التمهيد للمادية الجدلية ، فالمسألة من الناحية التاريخية والنظرية أعقد من ذلك بكثير ولعل فى أبحاث الأستاذ محمد أركون ، والأستاذ محمد عابد الجابرى (٣٤) ما يؤكد ما نحن بصدد الإشارة إليه ، فالنص الفلسفى الإسلامى نص عصى على الفهم ، ولا يكفى الموضع الجاهز لاستنتاجه ، وفك مغلفاته النظرية والتاريخية ، ولعل من بين أسباب اختناقه

الحصار اللاهوتى الذى لحم ملامحه ، وصاغ له الحدود والأفاق . ومن هنا فإن النتيجة المتسعة الأتية : «إن الفكر العربى الإسلامى الوسيط الفلسفى أو النظرى بشكل عام ، لم يتقوقع فى إطار المشكلات الوجودية (الأنطولوجية) الضيقة ، بل طرح من خلال ذلك قضايا المجتمع والإنسان ، بما فى ذلك مفاهيم الحرية ، والحتمية ، والتطور والديمقراطية والعمل ، والمعرفة» (٣٥) لا تعبر فى نظرنا عن مضمون ومحتوى بنية القول الفلسفى فى الإسلام» (٣٦) .

ولابد من التأكيد هنا أن منظومة التأويل الفلسفى العربى الإسلامى فى حاجة إلى كثير من الفحص والتأمل لكشف آلياتها ، ومعرفة أشكال تنشئتها وتبعثر القول الفلسفى فى الإسلام . وبناء عليه فإن ثنائية النزعات المادية والمثالية فى الفلسفة الإسلامية ، تشكل مشروعاً تبريرياً ، أكثر مما تشكل مشروعاً فى البحث والتأريخ .

نحن نعتبر فى إطار قناعتنا بتاريخية الفلسفة العربية الإسلامية والإنتاج النظرى الإسلامى فى كليته ، أن الاستماع إلى الإيقاع التاريخى للقول الفلسفى فى الإسلام يتيح لنا المساهمة فى الدفاع عن تاريخية قد لا تقر بأولية الاقتصادى فى التاريخ ، وقد لا تقر بثنائية الصراع الطبقي ، وثنائية المادية والمثالية ، وقد تكشف لنا توسط عوامل ومعطيات تاريخية أخرى ، ساهمت بأشكال حاسمة فى تطور الإنتاج النظرى الإسلامى .

٤ - تستعار إذن فى مؤلفات الطبيب تيزينى وحسين مروة مجموعة من مفاهيم المادية التاريخية ، من أجل قراءة التراث الفلسفى الإسلامى ، لكنها توظف فى نظرنا بكثير من الإيجابية الناسخة ، إننا نعتقد أن نقل المفاهيم من مجال معرفى ، إلى مجال معرفى آخر ، يقتضى تجنب الاستخدام اللفظى لهذه المفاهيم من أجل استخدامها المنتج ، حيث تزداد قوتها التعميمية ، وتمنح صلاحيات نظرية ومنهجية أوسع .

إن التوسير Althusser مثلاً ، عندما استعار مفهوم القطيعة الإيستمولوجية (٣٧) من الإيستمولوجيا الباشلارية ، ليقراً بواسطته كتابات ماركس ، مارس على المفهوم المستعار والنقول ، عملية تعميم إيجابية . لقد نقله من حقل تاريخ العلوم الذى تم ابتكاره فى إطاره ، إلى حقل قراءة التاريخ الفكرى لمفكر بعينه ، فأعاد بهذه العملية إنتاج المفهوم ، وأصبح هذا الأخير بواسطة هذه العملية أكثر اتساعاً ، فنتج عن كل ذلك تولد معرفى ، منهجى جديد . أما مفهوم الإقطاع فى نصوص تيزينى ومروة ، فإنه لم يتسع ، ولم يتقلص عن طريق معطيات المجال التاريخى الجديد ، بقدر ما تم استرجاعه فى صورته الأولى ، أو لنقل بتدقيق أكثر فى رسمه الحرفى ، مما حوله فى الكتابات المدروسة إلى مفهوم متخشب ويابس (٣٨) .

ليس من السهل اذن أن نقوم بنقل المفاهيم كما هى ، تحت غطاء كلية وكليانية مفترضة أو قسرية ، أو بدافع نزعة يقينية مطلقة . فحقب التاريخ ليست نسخاً متكررة ومتجانسة تماماً ، وصيرورة الكل التاريخى أوسع مما يمكن تصوره ، والاستماع إلى التاريخ عندما يتم فعلاً يوسع المفاهيم ويغنيها ، كما يقلص بعضها ، ويدفع إلى إعادة صياغة بعضها الآخر ، وقد يدفعنا فى بعض الحالات إلى إلغاء بعض المفاهيم ، وابتكار بدائلها فى قلب الممارسة النظرية المنتجة ، ومن هنا فإن النقل الذى يطغى عليه الطابع الإيديولوجى ، لا يولد الفهم ، بقدر ما يؤدى إلى نتائج من قبيل : «إن تاريخ الفلسفة هو ماضى الصراع الأيديولوجى الناشب فى الحاضر ، وأن المادية التاريخية هى مفتاح الحقيقة الكاملة» (٣٩) . ففى هذا الكلام كثير من تغييب التاريخ ، وهو حجر الزاوية الأول فى المادية التاريخية .

لا نريد أن يفهم من سياق هذا التحليل أننا بصدد الدفاع عن خصوصية عذراء ، أو أصالة متفردة تعلو على كل إرادة فهم أو تفسير أو تعقل ، إننا

بالعكس من ذلك نسلم بالقدرة التفسيرية للمناذج المنهجية العلمية المتعددة ،  
ونسلم بقدرة هذه النماذج على صياغة قواعد تيسير الفهم والعمل ، التعقل  
والممارسة ، ولكننا لا نريد باسم «العلم» ، أن تتحول قواعد البحث ومفاهيمه إلى  
نسخ جاهزة ، صالحة لكل زمان ومكان ، وبدون أى احتراس منهجى ، يجعلنا  
نفسى مطلب اليقظة اللازمة لكل ممارسة معرفية ، ونتيه فى ممارسة النقل ، بدل  
ممارسة التفكير (٤٠) .

إن النتائج المكلفة والباهظة الثمن ، التى نصل إليها من خلال مراجعتنا  
للكتب المذكورة ، تؤدى إلى تحويل التاريخ العربى الإسلامى إلى تاريخ صراع  
بين طبقتين هلاميتين ، والفلسفة إلى فلسفتين متصارعتين مثالية ومادية ، والمنهج  
إلى ثورى ومحافظ ، جماهيرى وبرجوازى ، لينتهى البحث ما دام التاريخ واضحاً  
بالصورة التى عرضناها ، وهى صورة تغشى البصر والبصيرة ..

### ( ٣ )

قدمنا فى الصفحات السابقة مجموعة من الملاحظات حول مشروع الرؤية  
الجديدة لكل من الطيب تيزينى وحسين مروة فى التعامل مع التراث الفلسفى  
العربى الإسلامى ، وقد حاولنا إبراز طريقة تعاملهما مع بعض مفاهيم ومبادئ  
المادية التاريخية ، كما حاولنا إبراز صعوبات نقلهما للمفاهيم كما هى ، وبدون  
حساب إيستمولوجى أو تاريخى يذكر ، وهو أمر يوضح سيادة الوثوقية التى لا  
تسعف بالرؤية ، ولا تسمح بالإنصات البارد والهادئ لإيقاع التاريخ . فكيف  
نستطيع تجاوز هذه الصعوبات ؟ وكيف يمكن الاستفادة من الجهاز المفاهيمى  
الذى ابتكرته المادية التاريخية فى قراءتنا لتراثنا ؟

نحن نتصور أنه لا يمكن لمفاهيم المادية التاريخية أن تستعيد حياتها فى  
المستوى المنهجى ، إلا عندما يعاد ابتكارها بأشكال لا أحد يستطيع رسم  
ملامحها النهائية ، وذلك فى ضوء كل المنجزات الجديدة التى ما فتئت ترتب فى



حقولها المعرفية وحقبها التاريخية ، والتي لم تكن قد وجدت فى وقت تشكل الملامح الأولى لهذه الفلسفة فى القرن التاسع عشر .

إن مفاهيم الصراع الطبقي الثنائى الحاد ، وأولوية الاقتصادى فى نمط الإنتاج الرأسمالى ، لا يمكن أن تسعف بمعرفة معمقة بتاريخ ماضيه ، ومنها المراحل التاريخية العربية الإسلامية ، إلا عندما تفتنى بمنجزات أبحاث العلوم الإنسانية الجديدة : الإنتربولوجيا الدينية ، ومناهج تحليل المعطيات الاقتصادية ، ونتائج الأبحاث الإنتربولوجية المتعلقة بموضوع القرابة ، ومعطيات تحليل السلطة ، والسلطة فى علاقتها بالمعرفة ، ثم نتائج النرس اللسنى ودرس السيمولوجيا ... ولعل استثمار وتوظيف المفاهيم المتعددة المبتكرة داخل تلك النماذج المعرفية ، يساعدنا على صياغة أشكال جديدة لنسيج المفاهيم ، ويجعلنا نمارس فعلاً مبدأ إعادة البناء ، إعادة إنتاج المعانى عن طريق التوسيع والتضييق ، والإلغاء ، والابتكار . وهو ما يعنى بالضبط ممارسة فعل الإبداع عن طريق المشاركة فى إنتاج المعرفة بواسطة استثمار النتائج العلمية الحالية ، والأدوات المنهجية السائدة ، أينما وجدت ، ومحاولة التفكير فيها بما يسمح بإخصابها والمشاركة فى تجاوزها بإعادة بنائها .

ولا يكتفى هذا التنوع مجرد صبغة تقنية ، إنه يكتسى أساساً صبغة فلسفية ، ذلك أنه يقتضى اختياراً معرفياً ، جديداً ، طريقة جديدة فى صياغة الإشكاليات ، ومقابل ذلك يؤدى هذا الاختيار الجديد إلى رفض الوثوقية والجزم والحقيقة المطلقة ، والعلم الكلى ، والخصوصية العمياء ، والأصالة المنفردة ... فى سبيل تعدد منهجى يقطع مع كل ضلالات وأحدية الرؤية المنهجية .

ومما لا شك فيه أن القشرة الوضعية التى غلقت النواة المعرفية للماركسية ، لم تعد قادرة على إحتلال نفس الموقع المعرفى الذى كانت تحتله فى القرن التاسع عشر - بناء على منطق التاريخ - ومعناه أن تطوير مفاهيمها مسألة

ملحة ، وأن هذا التطوير لا يتم إلا بمتابعة الاجتهادات المعرفية التي يتم ابتكارها في حقول معرفية مختلفة ، في مجال اللسانيات ، والاقتصاد ، والإنترولوجيا ، والتحليل النفسي ، وكتابة التاريخ ، ولعل متابعة النماذج المنهجية والمعرفية التي تنتجها هذه الحقول المعرفية ، يمكننا من إنجاز مراجعة أكثر خصوصية لتاريخنا وفلسفتنا ، وفي هذه الحالة بالذات تكون استعارتنا لمفاهيم المادية التاريخية أقل وثوقية ، وأكثر وفاءً لروح الموقف الماركسي التاريخي المتفتح والمفتوح .

وربما كانت الملاحظات السابقة مجرد ملاحظات أولية ، وغير كافية في الوقت نفسه لإبراز حدود وصعوبات الاستعمال المنهجي للمفاهيم ، في المجال الذي حصرنا بحثنا في إطاره . لكن المسألة الأساسية التي كانت تشكل هدفنا من هذا البحث هي رغبتنا في الإلحاح على ضرورة الحذر والاحتباس عند توسيع دائرة استعمال المفاهيم ، ونقلها من مجالها التداولي الذي تشكلت في صلبه ، إلى مجال تداولي قديم أو هامشي ، فالمفاهيم ليست جواهر أزلية ، وقدرتها التفسيرية محدودة ونسبية . ولن نتمكن من التقدم في فهم تراثنا الفلسفي وتراثنا على وجه العموم إلا بالانفتاح المنهجي ، والابتكار المنهجي ، الذي يتيح لنا أحد أمرين ، يتيح لنا إما نقداً للتراث ، أو متعة لا حدود لها عند قراءته ، وفي نظرنا فإن كتابات تيزيني ومروة لا تدخل لا في باب النقد ، ولا في باب اللذة والمتعة .

ها نحن نتقدم في المسألة ونحدث عن النقد والمتعة ، وهي مفاهيم أخرى نتقلنا من مستوى الحديث الإيتسمولوجي إلى مستوى الاستراتيجية ، استراتيجية النقد أم استراتيجية المتعة ، ولا شك في أننا الآن أمام قضايا أخرى ، أمام إشكالات جديدة ومعناه أن مجال البحث في الموضوع مفتوح .

## الهوامش

١ - راجع حول هذه المسألة دراسة ميشيل فوكو :

Nietzsche , Freud , Marx , in : Nietzsche, page 183 edition minuit , Paris , 1967 .

٢ - أنظر كيف يبرز ليفي ستروس أهمية النقل المفاهيمي في تطوير مجالات البحث وذلك في بحث :

L'analyse structurale en linguistique et en anthrologie in : Anthropologie strucrale , chapitre II page 37-62 . Ed : plin : Paris , 1974 .

٣ - راجع على سبيل المثال ندوة «إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي» وخاصة دراسات كل من جلال أمين : بعض مظاهر التبعية الفكرية في الدراسات الاجتماعية في العالم الثالث ص ٢٤٣ وقد تضمنها معاً كتاب «إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي» لسيد عويس ومجموعة من الباحثين ، نشر دار التنوير ، بيروت لبنان ، والمركز القومي للبحث الاجتماعي والجناي ، القاهرة ج . م . ع . ط ، ١٩٨٤ .

٤ - نقرأ في هذه المقالة الفقرة الآتية : إن الماركسية العربية أو تعبارة أدق الإيديولوجيا القومية المعاصرة للأحوال العالمية ، التي لا تختصر في مبادئها المبسطة بل تتحل في منطق أبحاث تاريخية واجتماعية كبرى ستذيع في المجتمع العربي عن طريق هذه الأبحاث ذاتها ، مفاهيم النفعية والليبرالية والتاريخانية التي عاد الفكر المعاصر لا يدور إلا في فلكها ، وستشارك بذلك بأوفر قسط في بحث منطق سياسى في بلادنا ، ومن هنا ضرورة تعريب الماركسية لغوياً وثقافياً ، تعريباً يتخطى مجرد النقل ، لأن النقل يحيل بالضرورة على مفاهيم لا توجد حالياً عندنا ، وكيف يتحقق الفهم في هذه الأحوال ؟ «نقلا عن «العرب والفكر التاريخي» ص ١٤١ دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٥ - مصطفى عبد الرزاق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، الفصل (١) ص ٣ -

٣١ مكتب النهضة المصرية ط ٣ ، القاهرة ١٩٦٦ .

٦ - الطيب تيزيني : مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط - دار

دمشق للطباعة والنشر ، دمشق ١٩٧١ .

٧ - نفس الكتاب ، ص ٣ - ٤ - ٥ .

٨ - نفس الكتاب ، ص ٥ .

٩ - نفس الكتاب ، ص ٤ .

١٠ - راجع من ص ١٢٥ إلى ١٣٦ ، نفس الكتاب .

١١ - الطيب تيزيني : من التراث إلى الثورة ، حول نظرية مقترحة في التراث العربي

، ج / دار ابن خلدون ، بيروت ١٩٧٦ .

١٢ - المرجع السابق ص ١٧ .

١٣ - المرجع السابق ص ١٨ .

١٤ - حسين مروة : النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية ، ج ٢ دار الفارابي -

بيروت ، ١٩٧٨ .

١٥ - المرجع السابق ، ص ٢٨ .

١٦ - بمقابل ما نعتناه بالفكر الإيستمولوجي نلاحظ سيادة التقدير الجازم في

صفحات المقدمة ، ورغم أن الأمر لا يتعلق بكتابة بيان ، بل كتابة تاريخ للفكر ، والفلسفة

العربية الإسلامية بالذات ، فإن طغيان الوثوقية لا يترك للباحثين أى متنفس للتساؤل عن حدود

استعارة المفاهيم ، كما أنه لا يدفعهما إلى متابعة المناقشات التى أثارها المادية التاريخية فى

حقول معرفية أخرى ، وفى مراحل تاريخية لاحقة .

داخل هذا الإطار يمكن مراجعة دراسة موريس غودولويه : الماركسية أمام مشكلات المجتمعات ما قبل الرأسمالية وهو يوجد فى كتاب حول نمط الإنتاج الآسيوى ، جان شينو (وآخرون) ترجمة جورج طراييشى ، ص ١٢١ دار الحقيقة ببيروت ١٩٧٢ .

١٧ - النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية ج ١ ص ١٦٠ .

١٨ - يحيل تيزينى فى كتابه مشروع رؤية جديدة للفكر العربى فى العصر الوسيط إلى مراجع ثانوية متعددة من قبيل الكتاب التعليمى للاقتصاد السياسى، دار نشر ديتز ، برلين ١٩٦٠ ، وذلك فى الصفحات ٢٦ - ٤٦ - ٥٤ .

١٩ - نقرأ لهذا المؤرخ الفقرة الآتية التى تبرز نمط الاحتراس الذى يديه عند استعماله لمفاهيم المادية التاريخية فى دراسته للمرحلة اليونانية :

«أين يجب وضع التقابل بين العبيد وبين مالكيهم الأحرار داخل هذه الخطاطة العامة ؟ (يتعلق الأمر فى سياق النص بحديث المؤلف عن الصراعات الاقتصادية والاجتماعية داخل بنية المدن اليونانية) وما هو الطابع الذى اتخذ صراع العبيد ؟ وما هو ثقله داخل سياق التطور الاجتماعى ؟ هناك ملاحظة تفرض نفسها فى مستوى الأحداث ، بالنسبة لمؤرخ اليونان ، وخاصة فيما يتعلق بالحقبة القديمة الكلاسيكية (...) إن التقابل بين العبيد ومالكهم لا يظهر أبداً كتناقض أساسى (...) ويجب ألا نستغرب ما دام صراع الطبقات يتشابك ويجرى داخل إطار اجتماعى سياسى ، يستثنى فيه العبيد مسبقاً »

نقلا عن :

Jean - Pierre Vernant , Mythe et Societe en Grece ancienne . Page : 27 , Maspero , Paris 1974 .

٢٠ - إن الخطاطة التى ترسم ملامح نهائية لتاريخ التطور البشرى تعود إلى مرحلة من مراحل تطور الفكر الماركسى ، ويتعلق الأمر هنا بالمرحلة الستالينية حيث نجد أن ستالين نشر مجموعة من الكتابات التى دافع فيها بوثوقية كبيرة على أنماط الإنتاج الاقتصادية التى

عرفها تاريخ الإنسانية ، ونحن نعتبر أن هذه الكتابات ساهمت في تفكير النظرية الماركسية ، ومنهجية التحليل التاريخي ، انظر على سبيل المثال كتيب ستالين الشهير المادية الديالكتيكية والمادية البنائية ، دار دمشق للطباعة والنشر ، بدون تاريخ .

٢١ - يمكن الرجوع إلى كتاب مهم حول هذه المسألة وهو مجموعة نصوص جمعها وكتب لها مقدمة الأستاذان ستوارت شرام وهيلين كارير دنكوس ، تحت عنوان : الماركسية اللينينية أمام مشاكل الثورة في العالم غير الأوربي ، ترجمة زهير الحكيم دار الحقيقة ، بيروت ١٩٧٠ .

٢٢ - نقصد هنا أنماط الإنتاج الخمسة المعروفة في الأدبيات الوثوقية الماركسية ، المشاعية ، العبودية ، الإقطاع ، الرأسمالية ، الاشتراكية .

٢٣ - Marx : Contribution à la Critique de l'économie Politique Page , 13 , Editions Sociales , Paris , 1977 .

٢٤ - يبرز الأستاذ هشام جعيط أنه ما بين ١٩٤٨ و ١٩٨١ لم تظهر من الدراسات التاريخية المختصة بالحقبة الإسلامية الأولى ، القرون الأربعة الأولى للهجرة سوى دراسات معدودة ، نقلا عن دراسته ، الإنتاج الفكر العربي منذ عشرين سنة ، وهو منشور في مجلة «فكر وفن» التي تصدر من ألمانيا باللغة العربية ٤٢ / ١٩٨٥ صفحات ٤٧ - ٤٨ .

٢٥ - راجع الأسئلة التي يطرحها حسين مروة في مقدمة الجزء الأول من كتابه النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، ثم تابع كيف يمارس أثناء التحليل والإجابة عملية التخلي عن هذه الأسئلة ، صفحات ٣٢ - ٣٣ وكذلك صفحات ٢٥ - ٢٦ .

٢٦ - مشروع رؤية جديدة ، ص ١٩١ .

٢٧ - النزعات المادية ... ج ١ ص ٥٢٢

٢٨ - النزعات المادية ... ج ١ ص ١٤٣

٢٩ - مشروع رؤية جديدة ص ١٤٤

٣٠ - من قبيل الأبحاث التي ينجزها الأستاذ محمد أركون في دراساته المتعددة ،

انظر على سبيل المثال المقالات الآتية :

- من أجل إسلاميات تطبيقية .

- الدين والمجتمع حسب النموذج الإسلامي .

- مفهوم العقل الإسلامي .

وذلك في كتابه : : Ed : Pour une critique de la raison islamique ,

Maison neuve et larose , Paris , 1984 .

٣١ - النزعات المادية .. ج ١ ص ٥٠١

٣٢ - النزعات المادية ... ج ١ ص ٨٩٧ .

٣٣ - مشروع رؤية ... ص ٢٣٤ .

٣٤ - زاجع دراستنا حول الأعمال الأخيرة لكل من الأستاذ محمد عابد الجابري

والأستاذ محمد أركون في قراءة التراث ، ضمن هذا الكتاب .

٣٥ - مشروع رؤية جديدة ، ص ٤٠٨ .

٣٦ - نجد في كتاب الأستاذ عبد السلام بنعبد العالي : الفلسفة السياسية عند

الفارابي ، تحليلاً قيماً لشكل المحاصرة التي عرفها العقل السيائسي في الإسلام ، « الفلسفة

السياسية عند الفارابي » ص ١٢٦ - ١٣٢ دار الطليعة ، ط ١ بيروت ١٩٧٩ .

٣٧ - : Ed : Althusser , Lenine et la Philosophie , Page 20 ,

Masped , Parise . 1972 .

٣٨ - انظر مناقشات بو على ياسين وزوضان السيد لكتابات تيزيني في كتاب الماركسية والتراث العربي الإسلامي ، صفحات : ٥ - ٦١ - ١٥٥ - ١٦٦ وهو من منشورات دار الحداثة ، بيروت ١٩٨٠ .

٣٩ - النزعات المادية ... ص ٣١ .

٤٠ - راجع الانتقادات القوية والصارمة التي يوجهها الأستاذ الجابري لأعمال الطيب تيزيني وحسين مروة وذلك في مقدمة كتابه نحن والتراث ، ص ١٠ - ١١ ، دار الطليعة ، ط ١ بيروت ١٩٨٠ وكذلك الخطاب العربي المعاصر ص ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٢ دار الطليعة ، ط ١ بيروت ١٩٨٢ .

٤١ - راجع تقديماً نموذجياً حول مسألة الانفتاح المنهجي في المقدمة المهمة التي كتبها الأستاذ محمد أركون لكتابه نحو نقد للعقل الإسلامي «وفي تحت عنوان : كيف نقرأ الفكر الإسلامي؟ ص ٧ - ٤٠ «مرجع مذكور» .



## ٥ - مشروع النقطة

فى

### قراءة التمرات

حول التكامل فى أعمال محمد عابد الجابرى  
ومحمد أركون



ليس من قبيل المصادفة أن يصدر في سنة واحدة (سنة ١٩٨٤) مؤلفات في موضوع نقد العقل الإسلامي ، كتاب الأستاذ محمد عابد الجابري «تكوين العقل العربي» (١) وهو الجزء الأول من مشروع نقد العقل العربي والكتاب الثاني للأستاذ محمد أركون وهو تحت عنوان «نحو نقد العقل الإسلامي» (٢) إن التواقت في الصدور يؤكد على مسألة بالغة الأهمية ، إنه يرمز إلى ما يمكن أن نسميه بزمان النقد في الخطاب العربي المعاصر .

صحيح أن صادق جلال أصدرد قبل سنوات كتابه الشهير «نقد الفكر الديني» (٣) (سنة ١٩٦٩) وأن مواقف فكرية أعلنت من مواقع ومنطلقات أيديولوجية مختلفة ، مواقف رديكالية من التراث ، نذكر منها على سبيل المثال تاريخانية الأستاذ عبد الله العروى (٤) إلا أن صدور هذين المؤلفين في منتصف ثمانينات القرن العشرين ، يحمل أكثر من دلالة في الفكر العربي المعاصر ، وفي باب الموقف من التراث ، داخل هذا الفكر .

يمكن أن يتبين قارئ الكتابين المجهودات النظرية المهمة المستثمرة في كليهما ، ويمكنه أن يلاحظ في الوقت نفسه الطابع التركيبي الذي يطبعهما ، حيث يستثمر كل من «تكوين العقل العربي» ونحو نقد العقل الإسلامي أي مجهود سنوات طويلة في التعامل مع النصوص الإسلامية أي في التعامل مع منتج العقل الإسلامي (٥) .

وقد لا يجادل اثنان في كون الأستاذ الجابري والأستاذ أركون يفكران في موضوع واحد ويرمى كل منهما بلوغ أهداف محددة من وراء هذا التفكير ، لكنهما وقد وضع كل منهما كتابه ضمن دائرة الممارسة النظرية النقدية ارتبطا معا في مسعاهما النقدي ، وشكلت الاستراتيجية النقدية هدفاً بعيداً لكل منهما .

وإذا كانت الممارسة النقدية في الغرب الأوربي تعتبر تقليداً راسخاً تدعمه التقاليد السياسية وترسخه المنظومات الفلسفية ، منذ عصر النهضة ، فإن الأمر يختلف عندنا في العالم العربي ، فالتقد ينعت في العادة بكونه أداة هدم وتقويض ، وتغفل جوانبه الإيجابية البناءة ، النقد في الذاكرة العربية يرادف الهدم إن لم يرادف الهرطقة ، ويدخل في باب البدع وخاصة عندما يتعلق الأمر بموضوع مركزي مثل موضوع « العقل » .

لهذا نقول مرة أخرى إن صدور مؤلفين في سنة واحدة في موضوع «نقد العقل» يمتلك أكثر من دلالة نظرية وتاريخية ومن هنا فنحن أمام حدث يستحق مثل العناية التي نشارك اليوم جميعاً في تدعيمها بالعرض والتقديم والمناقشة

\* \* \*

أريد أن تكون مساهمتي في تقديم كتاب «تكوين العقل العربي» محاولة أولية للتفكير في أوجه التتام والتكامل التي رسمها كل من مؤلف «تكوين العقل العربي» ومؤلف «نحو نقد العقل الإسلامي» .

وهنا لابد من التصريح في البداية بأن هذا التقديم المقارن لا ينطلق من موقف التثمين أو المفاضلة ، بقدر ما يتشكل أولاً وأخيراً في سياق التفكير في التتام والتكامل .

نعثر في الكتابين المذكورين على طموح كبير لتملك موضوع الدراسة ، كما نواجه فيهما معاً حماسة تاريخية قل نظيرها فيما يكتب اليوم عن التراث ، هذا بالإضافة إلى الانفتاح المنهجي الذي يطبع الكتابين معاً ، ويضفي عليهما كثيراً من الجدة والمتانة واللعمان ، سيتصب تقديمنا المقارن على محاولة تحديده مجال العقل وحدوده في المؤلفين ، ثم دلالة وأبعاد التوجه النقدي الذي اعتبره كل منهما عنواناً معبراً عن محتوى مؤلفه .

وقبل تحديد تصور كل من المؤلفين لمجال العقل العربي والإسلامي ، لابد

من التأكيد في البداية على اختلاف شكل المعالجة النقدية في الكتابين ، ففي كتاب الأستاذ الجابري نعث على مجهود نظري أكاديمي متكامل ، أى نعث على بناء يصوغ مقدماته وفرضياته ، ثم يمارس عملية البرهنة ، من أجل الوصول إلى خلاصاته ونتائج تتعلق بتكوين العقل العربي ، وآلياته المعرفية (٦) .

في حين نجد أن كتاب الأستاذ أركون يضم جملة من الأبحاث ذات الطابع الجهوى ، إنه يتناول بالدراسة موضوعات تنتمى إلى مجال الفلسفة ، والسياسة ، وأصول الفقه والحرب ، والزواج (٧) .

لكن هذا الاختلاف لا يؤثر في نظرنا على روح المشروع النقدى الذى يقف وراء كل منهما .

في كتاب الأستاذ الجابري أطروحة قوية ، وهى أطروحة قابلة في نظرنا لاستثمار أوسع ، إنها أطروحة تهدم كثيراً من الأوثان كما أنها تبنى بفنهاها النظرى رؤية جديدة في الكتابة عن تاريخ الفكر الإسلامى ، نقصد بذلك تأسيس مناطق نفوذ العقل الإسلامى ، في عصر التكوين (٨) تسمح هذه الفرضية بتجاوز التقسيمات السائدة عن تاريخ الثقافة العربية ، وتجعل عصر التكوين منطلقاً لتكون آليات التفكير العربى ، القياس والكشف والبرهان ، وبمقدار ما نجد في هذه الأطروحة قدرة على بلورة بداية افتراضية للقول الإسلامى في مختلف مجالاته ، وخاصة مجالات الثقافة العالمية نجد أن الأستاذ أركون يكفى بحصر مجاله وبدايته في الموضوعات الكلاسيكية ، من قبيل : القرآن وتجربة المدينة ، ومشكلة الخلافة ، أصول الدين ، أصول الفقه ، مكانة الفلسفة في المجال التاريخى الإسلامى ، ثم العقل الوضعى والنهضة (٩) الخ .. لكنه رغم محافظته على الهيكل الكلاسيكية للعقل الإسلامى ، حدد غاية بحثه في معرفة طبيعة العامل العقلانى والعامل الخيالى ، وطبيعة تداخلهما وصراعهما في مختلف نشاطات الفكر التى سادت المحيط التاريخى الإسلامى ، هنا وفى هذه النقطة

بالذات يلتقى بالتوجه العام للأستاذ الجابري ، حيث يؤكدان معاً على عمق المسافة الزمنية التي رسمها ومازال يرسم ملامحها العقل العربي الإسلامي ، ونقصد بذلك برهنتهما معاً على استمرار آلية العقل العربي منذ تأسيسه وإلى يومنا هذا .

يتحدث الأستاذ أركون عن ثلاث مراحل في تاريخ تكون العقل الإسلامي .

- المرحلة الكلاسيكية ، وهي مرحلة التأسيس والبدائيات .
- المرحلة المدرسة ، وهي مرحلة التقليد ، وتكريس التقليد والاجترار .
- المرحلة الحديثة والمعاصرة ، وهي مرحلة ما يعرف اليوم بالنهضة ، والثورة .

تتداخل هذه المراحل ، وتتبعثر وتتقطع في فضاء العقل الإسلامي ، لكنها لا تنفصل ، وذلك بفعل لحمتها الدينية العميقة .

في إطار هذه المراحل ، تتشكل بنية العقل الإسلامي ، ويعاد إنتاجها في صورة توابك مستلزمات السيادة والسلطة السياسية ، ويختلط فيها العقل بالأسطورة بالخيال يتم كل ذلك في إطار ما يسميه الأستاذ أركون « نمط إنتاج مجتمعات الكتاب » (١٠) .

داخل هذا الترتيب الذي يلتقى في نظرنا مع التوجه العام لكتاب الأستاذ الجابري ، نجد أن هذا الأخير يفكر بصورة فعلية ، وليس بغية اقتراح مشاريع للعمل (١١) ، كما نجد في أغلب مقالات الأستاذ أركون ، يفكر في آلية العقل العربي ، وبناء على فرضية عصر التدوين كعصر مؤسس ، وانطلاقاً من بحث يتوخى التقصى الإبيستيمولوجي ، وهو يعتبر أن أغلب الإنتاج النظري الذي بلوره مفكرو الإسلام ، ينحل في نهاية تحليل أسسه وقواعده العامة ، إلى واحد من هذه الأنظمة المعرفية ، البيان أو العرفان أو البرهان (١٢) .

العقل العربي إذن من حيث نظامه الداخلي ، وأليته الفاعلة ، قياس فقهي ، وبرهنة عقلية .

ويمقدار ما تقدم هذه النمذجة البنوية تصوراً جديداً لنظام إنتاج العقل العربي ، بقدر ما تثير من الأسئلة والاعتراضات ، وخاصة عندما نعرف أن الأستاذ الجابري يصرح بأن اهتمامه في «تكوين العقل العربي» يرتكز على الثقافة العامة (١٣) وأنه لم يلتفت صوب قارة كاملة من المعارض أنتجت داخل بنية العقل الاسلامي ، ونقصد بذلك قارة الكتابة الخيالية والكتابة الرمزية ، فهل يمكن التفكير في العقل العربي ( العقل العربي ) بدون التفكير في الخيال العربي ؟

حول مضمون هذا السؤال نجد في مقاربة الأستاذ محمد أركون توجهاً مخالفاً ، إننا نجد اقتراباً أكثر من جميع مستويات نظام إنتاج العقل العربي الإسلامي ، لهذا يدعونا محمد أركون إلى التفكير في الاشكاليات الآتية :

- السيرة النبوية ، وسيرة علي بن أبي طالب بين القداسة والأسطورة والتاريخ .

- المجتمع والدين و دور الدين في سبيل الوجود الاجتماعي .
- الرمز والمعنى .
- الخيال والتاريخ .
- السياسة بين الدين والدنيا .

واضح من الإشكالات السابقة أن مجال العقل الإسلامي في نظر الأستاذ محمد أركون أكثر اتساعاً ، وأن تجليات الخيال الرمزي ، تتيج لنا تملكاً أشمل لكل مظاهر الفكر والعقل في الإسلام .

مجال العقل إذن عند كل من المفكرين يتكامل ، ومشروع كل واحد منهما يوسعه الآخر ، فى كتاب الأستاذ الجابرى نوع من الوحدة التى رسمت نتائجها أولاً ، ووضحت بوعى تام منطلقاتها وأولوياتها ، كما وعت حدودها ... وفى كتاب الأستاذ أركون محاولة للتفكير فى المنسى ، فى التعبير الشفهى فى الإسلام ، فى المعيش غير المكتوب ، فى إزاحة الروايات الرسمية ، وإمالة اللثام عن الروايات والكتابات التى اعتبرت هامشية ، أو غير نموذجية ، وفيه أيضا وهذا ما يوسع مجال العقل الإسلامى تفكير فى الأنساق والأنظمة السيميائية غير اللغوية ، والأنساق المرتبطة بالمجال الدينى كالميتولوجيات ، والطقوس ، وأنظمة المعمار ، وبنى القراية (١٤) الخ ..

لم يعد العقل الإسلامى من منظور الأستاذ محمد أركون محصوراً فى مجال محدد ونهائى ، لقد انحل فى النهاية فى موضوع أشمل هو الخيال الاجتماعى والتاريخى .

وهنا لا بد من الإشارة إلى كون الأستاذ أركون يوسع بصورة لا متناهية مجال وحدود العقل الإسلامى ، فى المستوى التكوينى والإنتاجى ، وذلك بشكل ينتج عنه فى النهاية لا متعين ، مما يؤدى إلى بروز نتائج قد لا يوافق عليها الأستاذ الجابرى ، أو على الأقل لا تتسجم مع أهدافه المباشرة .

الحصر فى كتاب الأستاذ الجابرى اختيار ، اختيار أيديولوجى معلن ، إنه يفكر فى العقل العربى المعاصر ، ويسعى لكشف آلة المعقولة التى أكتسبها من ماضيه ، وذلك من أجل غايات مرسومة ومحددة :

أولها : إن الفاعلية الفكرية جزء من الفاعلية التاريخية الإرادية .

وثانيها : إن وضوح الرؤية جزء من نجاعة الفعل العقلى فى التاريخ .

وثالثها : التفكير فى توسيع دائرة العقل الكونى ، عن طريق ما يسميه

الأستاذ الجابرى : « استقلال الذات العربية (١٥) » .



فى هذا الإطار لا يصبح التقصى اللامحدود الذى مارسه الأستاذ أركون علامة تاريخية إيجابية فى نظر الأستاذ الجابرى ، ويصبح التاريخ الإيديولوجى مسألة حتمية ، حتى عندما يعلن بعض الباحثين أن أبحاثهم تتوخى أولاً وقبل كل شئ التقصى الأكاديمى الخالص .

رغم التباعد الذى يمكن أن نلمسه مما سبق ، فإن ما يوحد مجال الرؤية فى الكتابين وبصورة قوية هو استعمالهما معاً لمفهوم الإيستمي Episteme (١٦) ، هذا المفهوم الذى سمح بالإضافة إلى مفاهيم أخرى وظفت بأشكال مختلفة فى الكتابين ، بإنتاج خطاب جديد فى دراسة الفكر الإسلامى ، وفى التفكير فى نقد العقل العربى الإسلامى وهو يسمح بذلك لكشف لعبة الحقيقة ، وفضح آليات المعرفة .

نجد فى كتاب الأستاذ الجابرى أن العقل العربى تحكمه ثلاثة أنظمة معرفية : البيان والعرفان والبرهان ، تحكمه هذه الأنظمة فى تفاعل وتجاوب مع مستلزمات التاريخ ، بل لنقل بصيغة أدق فى ترابط أكيد مع ممارسة السياسية ، لكن هذه الأنظمة رسمت لهذا العقل حدوده فأصبح يفكر بواسطتها وداخلها ، وتحول الزمن الثقافى إلى زمن تقليد وتكرار ، إنه لم يعرف ، لا القطائع ، ولا الحرائق ، لقد ظل هو هو ، مشدوداً إلى آلية القياس ، آلية العرفان والكشف ، وآلية البرهان المحاصرة . وتوحى تحليلات الأستاذ الجابرى بأن آلية القياس الفقهي شكلت خلال تصادم الأنظمة المعرفية العربية عبر تاريخ الفكر الإسلامى الآلية المسيطرة ، مما جعل الحضارة الإسلامية والعقل الإسلامى مجرد عقل فقهي وحضارة فقهيّة (١٧) .

العقل العربى إذن فى نظر الأستاذ الجابرى عقل فقهي والتوتر بين القياس والعرفان والبرهان عبر تاريخ الثقافة الإسلامية ، عرف كثيراً من أشكال الهدنة ، مما أدى إلى خلل معرفى بارز فى بنية العقل العربى ، ونجلى هذا الخلل

فى غياب التقدم ، وشكل العقل العربى فى النهاية لحظة معرفية تكرارية (١٨) لقد تأسس الكتاب النموذج ، الكتاب النظام ، وتتابع النسخ والأشياء ، لحظة اكتفت داخل زمانيتها المغلقة باستعادة الأوليات والآليات القديمة ، بدون أن تشكك فى أسسها ، أو تحاول تفسير قوالها ، إن الأمر لا يتعلق بعصورنا الوسطى وحدها ، إنه يتعلق أيضا بحاضرنا ، من حيث أن حاضرنا مجرد امتداد أو تكرار للأنظمة التى تأسست فى عصر التدوين ..

أما الأستاذ محمد أركون فإنه يوظف مفهوم الإبستيمى ، ومفهوم الخطاب ، ثم مفهومي الزمن الطويل ، وتاريخ الأنساق الفكرية ، ليتجاوز تاريخ الأفكار ، وصيرورة الأصل والبداية والنهاية (١٩) وليتمكن من اكتشاف البنية العميقة ، البنية النظرية الأثيرية التى لا ترى ، بقدر ما تؤسس ، والتى وجهت وما زالت توجه نظام الفكر وقواعد إنتاجه فى العالم الإسلامى .

يمكن أن نغامر هنا فنعدى أن الأستاذ أركون يفكر فى نظام الأنظمة فى الفكر الإسلامى ، وبالتالي فإن تحديده لهذا النظام لم يتعلق بتقسيم لمجال تظاهر العقل الإسلامى كما فعل الأستاذ الجابرى بقدر ما حاول صياغة النظام الضابط للعقل الإسلامى بغض النظر عن القواعد الجزئية ، والفرعية التى يمكن أن تكون مؤسسة فى مناطق جهوية .

أما الخلاصات الأساسية التى يقدمها الأستاذ أركون للإبستيمى الإسلامى فهى :

- الخلط بين الميتى والتاريخى .
- التدعيم القطعى للقيم الدينية ، انطلاقاً من القرآن والسنة .
- التأكيد اللاهوتى لتفوق المسلم على غير المسلم .
- حصر وظيفة العقل فى الاجتهاد وتأويل الوحي .

– تقديس اللغة والدفاع على قداسة المعنى المرسل من طرف الله .

– التأكيد على تعالى المقدس (٢٠) .

إن هذه الخلاصات هي التي توجه نظر الأستاذ محمد أركون في مجال العقل الإسلامي ، وحكم عملية تولد توليد الأفكار في مختلف جوانب الحياة في الإسلام ، وهي تتضمن رؤية محددة عن العالم ، رؤية تسلم بأولوية الإلهي في الكون ، وتجعل الفكر متمركزاً حول الوحي ، وتحول العالم إلى مسرح تبدأ فصوله هنا ، وتنتهي هناك في العالم الآخر .

تلك إذن خلاصة مكثفة للإبستيمي الذي حكم مختلف توجهات العقل الإسلامي إلا أنه يجب ألا نتصور أننا أمام بنية معرفية ثابتة ومغلقة ، فهذا أمر غير وارد عند الباحثين معاً وتصادم الأبنية المعرفية وتداخلها ، مع أنظمة معرفية أخرى ، أمر تحقق فعلاً في التاريخ الإسلامي ، وتاريخ تشكل العقل العربي ، إلا أن استمرار الإبستيمي الإسلامي ، ونظام القياس كنظام محتكر للسيادة ، رغم التوتر والانقطاع يعنى قدرة الأوليات المعرفية الدينية على توجيه صيرورة نمط إنتاج الأفكار وتنويعها ضمن أفق اللاهوت .

ولاشك أن استثمار مفهوم الإبستيمي في المؤلفين اللذين نحن بصدد تقديم حديث عام عنهما ، يدفعنا إلى استخلاص نتيجة أساسية هي أن ما رسخته الدراسات السلفية والدراسات الاستشراقية ، والدراسات الوصفية عن التراث لم يعد صالحاً تماماً للتفكير بصورة جدية في نظام المعرفة الإسلامية (٢١) ومعناه أن المؤلفين معاً يرسمان طريقاً جديداً في قراءة الإنتاج النظري الإسلامي ، بالإضافة إلى مساهما الإيديولوجي المتعلق بالحاضر ، حيث أن الغاية من نقد العقل العربي في نظر الأستاذ الجابري ، هي تدشين عصر تنوير جديد ، يتيح لنا كسر البنية الفقهية السائدة ، كما يتيح لنا خلخلة التقليد من أجل إزاحته ، وكل ذلك من أجل استقلال الذات العربية والمشاركة في إبداع التاريخ ،

أما الأستاذ أركون فإنه يحاول ترسيخ تقاليد البحث العلمى المتعدد المشارب والمناهج من أجل تجاوز التمرکز الأوربى ، وتحطيم التفرد اللاهوتى فى إتجاه الدفاع على أن الوحى والحقيقة والتاريخ أمور مترابطة ومتفاعلة بشكل محايد (٢٢) .

يتضح مما سبق أن «تكوين العقل العربى» و«نحو نقد العقل الإسلامى» يرومان فى نهاية المطاف بلوغ هدف محدد فى الكتاب الأول الهدف واضح ومعلن : «مشروعنا هادف إذن فنحن لا نمارس النقد من أجل النقد ، بل من أجل التحرر مما هو مميت أو متخشب فى كياننا ، العقلى ، وإرثنا الثقافى ، والهدف : فسح المجال للحياة كى تستأنف فىنا دورتها ، وتعيد فىنا زرعها ... ولعلها تفعل ذلك قريباً» (٢٣) .

أما الأستاذ أركون فإن الهدف فى أبحاثه يتأرجح بين المعلن والظاهر (تجديد الدراسات الإسلامية) والمكنون ، (نقد العقل الإسلامى) ولكن عند الاستماع المباشر لإحياءات وأبعاد الدراسات التى ينتجها ، يمكن أن ننتبين رغبة حميمة فى مزيد من التعمق فى فهم الظاهرة الدينية ، ومعرفة مستويات ترابطها وتفاعلها ، وتلاحمها مع الوجود التاريخى للإنسان ، نحن فى النهاية إذن أمام دربين يوصل الواحد منهما إلى نهاية الآخر ، إن الباحثين معاً يسترقان السمع لتفاعلات وتناقضات العقل العربى ، ويعليان راية النقد بكل شجاعة فى زمن سيادة التقليد ، ولعلنا فعلاً معهما وانطلاقاً من أعمالهما أمام بداية تأسيس مشروع نقدى جديد حول الموقف من التراث .

## الهوامش :

\* - قدم هذا البحث في الندوة التي نظمها إتحاد كتاب المغرب بالرباط في شهر مارس ١٩٨٥ حول كتاب : «تكوين العقل العربي» .

١ - الدكتور محمد عابد الجابري : تكوين العقل العربي . دار - الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٤

- Mohaned arhoun , pour une aib , que de la raison ia-  
louicque , mauisonn e uve et larose , paris . 1984 .

٢ - الدكتور صادق جلال العظم : نقد الفكر الديني ، دار الطليعة ، بيروت ط ٣ . ١٩٧٢ .

٤ - يمكن التأكد من هذا من خلال مراجعة كتاب . عبدالله العروي العرب والفك  
التاريخي . دار الحقيقة ، الطبعة الأولى ١٩٧٣ .

٥ - ان اهتمام كل من الأستاذ أركون والأستاذ الجابري بالتراث يعود إلى نهاية  
الستينيات حيث أصدر الأستاذ أركون رسالته الجامعية المهمة حول مسكويه ، وهي تحت عنوان

Contribution à l'étude de l'huwawisme au VI<sup>e</sup> de l'hégire :  
Mishawayh jhilaoojhe et histoiw , uriv , posis 1970 .

كما أصدر الأستاذ الجابري رسالته الجامعية حول ابن خلدون ، وقد كانت معنوية كما  
يلي : العصبية والدولة : معالم نظرية ، خلدونية في التاريخ الإسلامي . دار الثقافة ، الدار  
البيضاء ١٩٧١ .

كما أصدر الأستاذ الجابري رسالته الجامعية حول ابن خلدون ، وقد كانت معنوية كما  
يلي : العصبية والدولة : معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي . دار الثقافة ، الدار  
البيضاء ١٩٧١ .

٦ - يقسم الأستاذ الجابري كتابه إلى قسمين : قسم أول حاول فيه تحديد عدته المنهجية وعنوانه ب : العقل العربى .. بأى معنى ؟

وقسم ثان يستعرض فيه مكونات أو مركبات العقل العربى ، وذلك من خلال تقديم مادته المعرفية وأبعاده الأيديولوجية ، وقد عنوانه بالصورة الآتية : تكوين العقل العربى : المعرفى والأيديولوجى فى الثقافة العربيه .

٧ - يضم كتاب الأستاذ أركان أيضاً قسمين كبيرين :

قسم أول تحت عنوان : مقارنة الفكر الإسلامى ، وهو يضم الفصول الآتية :

١ - من أجل إسلاميات تطبيقية .

٢ - مفهوم العقل الإسلامى .

٣ - مظهر الوعى الإسلامى .

٤ - من أجل إعادة سبك الوعى الإسلامى .

٥ - السيادة والسلطات فى الإسلام .

٦ - الدين والمجتمع حسب المثال الإسلامى .

٧ - وظائف الدين .

٨ - الزواج المختلط فى الوسط الإسلامى .

٩ - كيف نقرأ نص : «الحكمة الخالدة» ؟

أما القسم الثانى فقد جاء تحت العنوان الكبير الآتى : قراءة الفضاء المغربى ، وقد تضمن الفصول الآتية :

١ - أشكال حضور الفكر العربى فى الغرب الإسلامى .

٢ - تقديم ابن طفيل .

٣ - الإسلام والنمو في المغرب المستقل .

- نقرأ في «تكوين العقل العربي» ما يلي :

«لقد تشكلت بنية العقل العربي ، إذن ، في ترابط مع العصر الجاهلي فعلاً ، ولكن لا العصر الجاهلي كما عاشه عرب ما قبل البعثة المحمدية ، بل العصر الجاهلي كما عاشه في وعيهم عرب ما بعد هذه البعثة : العصر الجاهلي بوصفه زمنًا ثقافيًا تمت استعادته وتم ترتيبه وتنظيمه في عصر التدوين الذي يفرض نفسه تاريخياً كإطار مرجعي لما قبله وما بعده» ص ٦١ (مرجع مذكور) .

٩ - Arkorw , Pow Wree Cuitspae dr la Raicon

Isauique 11 - 12 .

١٠ - Arkorw , Pow Wree Cuitspae Poer AC2 .

١١ - يغلب على بعض أبحاث كتاب الأستاذ محمد أركون طابع الانفتاح المنهجي الذي يثير الأسئلة ، من بين هذه الأبحاث ، دراسته حول : السيادة والسلطات السياسية في الإسلام ص ١٥٥ - ١٩٢ .

١٢ - يطلق الأستاذ الجابري على هذه الأنظمة تسميات دقيقة ، تبرز قدرته على نحت المفاهيم المطابقة لإجتهاداته ، نظام البيان ( المعقول الديني ) ، نظام العرفان (اللامعقول العقلي) ، ونظام البرهان (المعقول العقلي) .

١٣ - لقد تجنب الأستاذ الجابري في كتابه الروايات والقصص والنصوص الرمزية .

١٤ - Arkovn , pow une critojve ale lo roisos iolavipue , ye- 44 - 45 .

١٥ - راجع خاتمة كتاب الأستاذ الجابري :

الخطاب العربي المعاصر ، وهي تحت عنوان : من أجل الاستقلال التاريخي للذات العربية ص ١٧٧ ، دار الطليعة بيروت ١٩٨٢ .

١٦ - لقد استعمل هذا المفهوم المفكر الفرنسي الكبير ميشيل فوكو وهو يحدده بـ « مجموع العلاقات التي تربط في حقبة معينة الممارسات القولية المنتجة لأشكال معرفية ، أو لعلوم ، أو لأنظمة صورية » ...

Lanchc 'ologie du Savoie , Gallinand , Pavis A969 , Page :  
270

١٧ - راجع الفصل الخامس من كتاب : « تكوين العقل العربي » وهو تحت عنوان:  
التشريع للمشرع ، ص ٩٦ - ١١٤ .

١٨ - «تكوين العقل العربي» ص ٤٢ .

١٩ - Arkovn , pow une critojve de la roisos iolavipue , 30 .

٢٠ . Arkovn , pow pue , 20 .

٢١ - أنظر موقف الأستاذ الجابري من الدراسات السلفية والاستشراقية للتراث في كتابه : نحن والتراث ، دار الطليعة بيروت ط ١ ١٩٨٠ ص ٥ - ٩٧ .

وموقف الأستاذ أركون من نفس التيارات في الفصلين الثالث والرابع من كتاب «نحن نقد العقل الإسلامي» صفحات ١٠١ - ١٥٤ .

٢٢ - Arkovn , pow une critojve de la roisos iolavipue , 9 -

10

٢٣ - تكوين العقل العربي ص ٧ - ٨ .



# ٦ - الفلسفة والهاجس السياسى فى عوائق الكتابة الفلسفية المفاهيمية



## ( ١ )

لا تندرج الكتابة الفلسفية المغاربية فى سياق تاريخ الفلسفة بمعناه الكونى والشامولى ، إنها تنمو على هامش تاريخ الفلسفة ، وتساهم فى صياغة مجراها الفكرى فى إتصال وانفصال عن هذا التاريخ .

ومن الأمور التى تلفت النظر فى هذا المضمار أن الكتابة الفلسفية المغاربية، وقد نشأت متأخرة بالمقارنة مع تبلور بعض التيارات الفلسفية فى المشرق العربى ، لم تنتج مدارس وتيارات تابعة للمدارس الفكرية الغربية ، من قبيل الوضعية ، والوجودية ، والماركسية ، والفلسفة التحليلية إلخ ... فلا وجود للمدارس والمذاهب الفلسفية الغربية فى الإنتاج الفلسفى المغاربى بالمعنى الذى يبلور مدرسة أو تياراً يهتم بإعادة إنتاج فكر هذه المدرسة ، بالعرض والشرح والتبسيط . (١)

لا يحضر إذن تاريخ الفلسفة فى الفكر الفلسفى المغاربى كمدارس وتيارات ، قدر ما يحضر كمفاهيم وأطروحات موجهة باهتمامات تاريخية سياسية ثقافية محلية ، وهو أمر يضى كثيراً من الجهد والمعاونة فى هذه الكتابة . ومنذ كتاب «العرب والفكر التاريخى» للأستاذ عبدالله العروى ، وقد صدر سنة ١٩٧٣ ، إلى كتاب «الإسلام وأوروبا» (١٩٧٨) للأستاذ هشام جعيط إلى مشروعى «نقد العقل العربى» و«نقد العقل الإسلامى» للأستاذين الجابرى وأركون ، وقد صدرا معا سنة ١٩٨٤ نجد أنفسنا أمام عينة من الكتابات ندرجها فى خانة الكتابة الفلسفية ، المتميزة بانخراطها فى الجدل السياسى والتاريخى المرتبط بالظرفية العربية الراهنة ، والمتميزة فى الوقت نفسه بتمثيلها لكثير من المفاهيم الفلسفية الحديثة والمعاصرة .

وعندما نقر بالطابع الفلسفى لهذه النصوص التى ذكرنا ، فإننا لا ننطلق من وجود حدود جاهزة ونهائية للقول الفلسفى ، فنحن نعتقد أن كثيراً من النصوص الصادرة فى بلدان المغرب العربى ، والمتعلقة بموضوعات تنتمى إلى حقل العلوم الإنسانية والعلوم السياسية ، والنقد الأدبى (٢) ، تتضمن كثيراً من المفاهيم الفلسفية ، وهو ما يعنى إتساع مجال الكتابة الفلسفية . فلا أحد

يستطيع اليوم بعد كل المراحل التي قطعها تاريخ الفلسفة ، أن يقول بوجود نموذج واحد للقول الفلسفى ، وكل جزم فى هذا الباب يخل بمبدأ لا محدودية الإبداع داخل لا محدودية الزمان .

وعندما نتساهل منهجياً ومدرسياً ، ونعلن مواصفات محددة للإنتاج الفلسفى ، فإن هذا الإعلان يظل مؤقتاً ، كما يظل مرهوناً بصيرورة تاريخ الفلسفة ، وهو تاريخ مفتوح على ذاته ، وعلى دائرة زمانية أوسع منه ، هى دائرة التاريخ العام (٣) .

يتمتع الجدل الفلسفى المتبلور فى النصوص المذكورة (كتابات أركون وجعيط والعروى والجابرى) بكثير من الحيوية ، أما فضيلته الكبرى فتتمثل فى سعيه للتفكير فى زمانه داخل الزمان العام ، ومحاولته الاستعانة بجملته من المفاهيم الأساسية فى تاريخ الفلسفة ، من أجل المساهمة فى توسيع الدائرة الدلالية لهذه المفاهيم ، وإغناء دائرة النظر الفلسفى فى الفكر العربى المغاربى .

إن الخطاب الفلسفى المذكور لا يعد صدئى للفلسفة الجامعية ، وبعض الذين ساهموا فى تأسيسه وتطويره لا ينتمون إلى أقسام فلسفية بالجامعات المغاربية (٤) ، لكنهم جميعاً يتوفرون على عدة فلسفية رفيعة ، تبرز فى المرجعية التى تؤطر نصوصهم ، كما تبرز فى قدرتهم على صياغة الإشكاليات النظرية التى تنتمى إلى دائرة التقاليد الفلسفية كما رسمها ومازال يرسمها تاريخ الفلسفة .

إن الوقوف على أعمال هؤلاء الأعلام لا يعنى أبداً أنهم وحدهم يمثلون الفلسفة فى المغرب العربى ، فبجوارهم وفى مختلف الأقطار المغاربية ، نشأت ومازالت تنشأ نصوص فلسفية مغاربية سيكون لها شأن مهم فى تاريخ الفكر الفلسفى العربى (٥) . ونحن هنا نقف عند أعمال هؤلاء بالذات ، لكونها تعبر عن إشكالات متقاربة ، وتخوض فى موضوعات تكاد تكون واحدة ، وقد تكون معبرة

فى الوقت نفسه عن وعى جيل من المشتغلين بالفكر الفلسفى فى بلدان المغرب العربى .

أما الموضوعات التى تشكل مجال التأمل الفلسفى فى المغرب العربى فإنها لا تدخل فى إطار الموضوعات الفلسفية التقليدية ، إنها موضوعات وقضايا ترتبط بملابسات التاريخ الحى ، تاريخ الصراع المجتمعى ، والصراع السياسى والأيدىولوجى فى أقطار المغرب العربى ، ضمن دائرة أوسع هى دائرة الوطن العربى الكبير (٦) . والملابسات التى نعنى هنا هى ملابسات حضارية سياسية ثقافية حصلت بفعل متغيرات التاريخ الأوروبى فى علاقاته بالعالم الإسلامى ، فى نهاية القرن التاسع عشر ، وولدت ومازالت تولد نتائج ومضاعفات تتسم بالهيمنة والتبعية ، فى مجال الفكر ، وفى مجالات الوجود المجتمعى الأخرى ، كما تتسم بمحاولات فى تجاوز هذه الهيمنة ، وتملك ما يسعف بوجود مبدع وفاعل فى بنية التاريخ .

إن ما يستقطب الاهتمام فى النصوص التى ذكرنا ، هو موضوع الهوية والتاريخ ، الهوية والتراث ، الهوية والحداثة .

ونحن لا نشك فى أن هذه الموضوعات تشكل تطورا لإشكالات فكر عصر النهضة العربية ، وتشكل فى الوقت نفسه تجاوزاً لبيانات الحركات الوطنية التى كانت مطبوعة بالطابع النضالى المباشر فى مختلف أقطار المغرب العربى .

إن الأحاديث الفلسفية عن الهوية تعبر عن درجة من مستوى تطور الوعى العربى أمام وقائع تاريخية تتسم بالهيمنة الأجنبية وتوابعها . كما أن النصوص المتعلقة بالحداثة تتميز بتفكيرها فى كيفية تجاوز التأخر التاريخى السائد .

ومعنى هذا أن الدائرة التى تتناسل فيها الكتابة الفلسفية المغربية اليوم هى دائرة التاريخ والسياسة ، وهى دائرة تنسج نصوصها فى أفق جدلية فكرية موصولة بمقتضيات الحاضر العربى ، وموصولة بمتغيرات اللحظة التاريخية الراهنة فى كونيتها .

وتتميز هذه الجدلية بمحاولتها تطوير وتجاوز الخطاب النهضوى (٧) وذلك باستيعاب دروس تاريخ الفلسفة ، ودروس التاريخ . وسنحاول من خلال تحليلنا لبعض مفاهيمها ، الوقوف على حدود مساهمتها فى تطوير إشكالات الفكر العربى .

## ( ٢ )

داخل التفكير فى الهوية تبلورت مواقف من التراث ، كما تبلور مشروع نقد العقل ، ونقد التراث .

ولابد من التوضيح هنا بأن مفهوم النقد فى مصنفات أركون والجابرى ، يحيل إلى مفهوم نعتقد أنه من ثوابت الممارسة الفلسفية ، وهو مفهوم ما يفتأ يتأسس فى أكثر من سياق من سياقات تاريخ الفلسفة ، هنا وهناك .. إنه يحيل بالذات إلى فلسفة النهضة ، وفلسفة الأنوار ، كما يحيل إلى الماركسية ، وفلسفات الاختلاف المعاصرة .

ولا تعنى الإحالة إلى الفلسفات التى ذكرنا ، وجود تماثل كلى بين المفهوم داخل بعض الفلسفات ، والمفهوم فى سياق «نقد العقل العربى» ، «ونقد العقل الإسلامى» .. ففى نصوص الجابرى وأركون يمكن أن نثبت الدلالة الفكرية المركبة لمفهوم النقد ، الدلالة التى تحيل من جهة إلى أكثر من مرجعية من المرجعات المؤطرة للمفهوم ، كما تحيل من جهة ثانية ، إلى المعطيات النظرية الجديدة المتولدة عن هذا الاستعمال .

لقد وظف المفهوم فى مجال الكتابة العربية المغاربية ، فى بناء أطروحات حول الموقف من التراث ، أى داخل التفكير فى الإشكال التاريخى الحضارى العربى ، المتعلق بالحدثة وسبل بلوغها فى الوطن العربى .

ومن المؤكد أن جهداً فكرياً مهماً ، قد بذل فى المصنفات التى أنجزها كل من الجابرى وأركون فى هذا الباب ، ونحن هنا لا نريد تقديم هذا الجهد بصورة

تحليلية (٨) ، قدر ما نريد التفكير فى بعض عواقة النظرية ، وذلك من خلال تفكيرنا فى الدور الذى مارسه الهاجس السياسى على عملية النقد والانتقاد .

وقبل ذلك ، لابد من الإشارة إلى الأهمية الكبرى التى تكتسبها أُمال الجابرى فى باب نقد التراث ، فمن المؤكد أنها مؤلفات تساهم فى صياغة مواقف من الماضى ، فى ضوء ما تعتقد أنه مطلوب فى الحاضر، إنها مؤلفات تصوغ حدودها فى دائرة من المسلمات السياسية التاريخية . وهى تعنى أبعاد الوعى الذى تنتجه فى سياق وعيها . بمتطلبات اللحظة التاريخية فى الوطن العربى .

أما أبحاث محمد أركون ، فإنها تجادل فى قضايا نقد التراث من منظور مقارن ، منظور يعتنى بدائرة الفكر الإسلامى ، ولا يقتصر عليه ، بل إنه غالباً ما ينحو نحواً مقارناً ، فينتقل فى أحاديثه من الإسلام إلى المسيحية واليهودية ، ويبحث فى أوليات المقدس فى التاريخ ، موضحاً علاقة الوعى بالزمان .

إن هذا لا ينفى طابع التاريخية ، والوعى التاريخى على ما كتبه ويكتبه أركون ، لكنه يبرز وجهاً آخر لأعماله ، يتسم باتساع غائية بحثه عند مقارنتها بغائية النقد فى أعمال الجابرى .

ولا خلاف فى وجود كثير من التكامل بين أعمال هذين المفكرين ، وهو أمر اثبتناه فى محاولة سابقة ، عندما عقدنا مقارنة بين «تكوين العقل العربى» و«نقد العقل العربى» (٩) ، لكننا نعتقد فى الوقت نفسه ، وخاصة بعد صدور الجزأين الثانى والثالث من أطروحة «نقد العقل العربى» ، بوجود اختلافات بارزة بين هذين المفكرين .

ونحن نعتبر أن السبب الرئيسى الذى يوجه الاختلاف بينهما ، يتجلى فى الأهمية التى يمنحها كل منهما للهاجس السياسى ، أثناء البحث والتحليل واستخلاص النتائج ...

ونستطيع أن نقول اعتماداً على معايينة متواصلة لنصوص الجابري ، إنه يعطى أهمية كبرى للهاجس السياسى فى أبحاثه ، فهو يسعى فى مختلف محاولاته لإغلاق خطابه ، كما يحاول الانخراط فى كل القضايا التى تثار بصورة متلاحقة فى المجال السياسى والثقافى فى المغرب ، وفى الوطن العربى .

أما محمد أركون فإنه يقلل من أهمية الاعتبار السياسى الظرفى ، ويحكم آليات التحليل الموضوعى ، ويذهب بعيداً فى مجال التمرس بالتأمل ، دون رهان على ملايسات الظرفية التاريخية فى أنيتها القصيرة ، والمتلاحقة .

تبدو هذه المسألة (مسألة الاختلاف) واضحة فى أكثر من جانب ، فى كتابات كل منهما . وسنجزىء من أعمالهما معطيات وعناصر ، للتمثيل على ما نحن بصدد إثباته والبرهنة عليه .

فى المستوى المنهجى نلاحظ فى كتابات أركون حرصاً على التجديد المنهجى ، وعلى كتابة مقالات ذات طابع منهجى صرف ، أكثر مما نلاحظ وقوفه على نتائج وخلصات نهائية ، نحن نستثنى هنا أطروحته حول مسكويه ، ونعتقد أن مجموع ما كتبه فى مجال السياسة فى الفكر الإسلامى فى العصر الوسيط يتضمن كثيراً من النتائج الأولية والمفتوحة .

قد يقول بعض الباحثين ، إن مقالات محمد أركون تتضمن فى الأغلب الأعم مشاريع فى البحث والعمل ، إنها خطاطات أولية أكثر منها أبحاث منتهية ، إلا أننا نرى عكس ذلك تماماً ، وفى هذه النقطة بالذات ، فمشاريع أبحاثه تؤثر على أفق للبحث غير مطروق ، وهى تساهم فى إنجاز عمليات مسح ، وعمليات مقارنة لجبهات غامضة فى قارة الفكر الإسلامى ، ثم إن جهود المنهجية تساهم فى تأسيس مقالة قوية فى المنهج ، وهو أمر يفيد فى باب التأصيل المنهجى ،



والمراجعة الإستمولوجية - وهذه كلها أفاق تفتحها دراساته المتمرسه بأساليب البحث العلمى ، وقد تبينا فائدة هذه المسألة فى المصنفات التى جمعها أخيراً (١٠) وأبرزت جهوده العميقة فى باب قراءة التراث الإسلامى ، ومحاولة تفكيك أصوله ، بالنقد والتحليل .

أما الأستاذ محمد عابد الجابرى ، فإنه رغم تفتحه على كثير من الأدوات والمفاهيم المنهجية الغربية ، يكتفى بما يسعفه ببلورة الرؤية ، وإنجاز الخلاصات التى توجهها محاورته المتواصلة للقضايا السياسية والتاريخية ، وهو يعى هذا الفرق بينه وبين أركون ، فيقول «بإمكان القارئ أن يلمس الفرق بين اختياري الإستراتيجى ، واختيار الزميل أركون ، إذ هو مثلاً عمد إلى استخراج المفهوم الإستراتيجى فى تحليلاتى (..) فنحن جميعاً نشغل فى موضوع ، هو الثقافة العربية الإسلامية ، ولكن لا من زاوية واحدة ، بل لكل منا الزاوية التى ينظر منها » (١١) .

نأخذ مثلاً يوضح التقابل بصورة جلية بين الباحثين ، ويوضح حدود النقد فى أعمالهما . وهو الموقف الذى ضمنه الأستاذ الجابرى خلاصة الجزء الثانى من مشروع «نقد العمل العربى» يتعلق الأمر بالمنزع التوفيقى المعلن فى الجزء الثانى من مصنف «نقد العقل العربى» حيث يقول الباحث : «لاسيلاً إلى التجديد والتحديث ، ونحن هنا لا نتحدث عن العقل العربى ، إلا من داخل التراث نفسه ، وبوسائله الخاصة ، وإمكاناته الذاتية (١٢) هذا الموقف نموذج واضح لتغليب آلية السياسى على الفلسفى فى الإنتاج الفلسفى المغاربى .

أما محمد أركون فإنه يبرز استحالة الاستفادة من الرشدية كنموذج تراشى وذلك لأن ابن رشد يعد نموذجاً لمعقولية وسطوية ، مشروطة بنظام الفكر الإسلامى فى العصر الوسيط ، وهو ينص بالحرف على أنه «لم يعد ممكناً» استخدامه اليوم ، من أجل حل المشاكل والتحديات التى تواجهنا ، ففعلانيته لم

تعد عقلانيتنا ، هذا على الرغم من أنه كان يمثل العقلانية والحدثة في زمنه ، وبالنسبة لعصره « (١٣) .

إن كتابة محمد أركون لا تخفى انخراطها الكلى في معترك اللحظة العربية الراهنة ، إلا أنها تقلل من التحزب الظرفى ، لمصلحة تحزب إستراتيجى يقيم تمييزاً قاطعاً بين بنية النظر الإسلامى فى العصر الوسيط وأسئلة الحدثة الجديدة ، التى تفترض انقطاعاً بين نظام الفكر اللاهوتى ، ونظام الفكر المعاصر ، ثم أنه فى أغلبية أبحاثه يقف على عتبة السؤال المتواصل من أجل محاصرة متواصلة للتراث ، وفى سبيل تقليص هيمنة نظامه الفكرى المستمر فى دائرة الثقافة العربية المعاصرة ، وفى هذا السياق يقول : « سوف أكتفى بالتنصيص على بعض المبادئ الحادة والقاطعة بهدف إثارة الاعتراضات والتحفظات ، وبالتالي التفكير والمناقشة النقدية ، أكثر مما تهدف إلى تقديم نتائج وإجابات جاهزة » (١٤) .

ومن حق الأستاذ الجابرى أن يؤكد هذا الأمر ، ويقول أنا لست بصدد بناء نسق فلسفى وتأملى ، مثالى وطوباوى ، ولست بصدد بناء رؤية راديكالية متماسكة ومتناسقة ،حتى وإن كانت غريبة عن الواقع ، وهو يقول حرفياً فى جملة موحية فى سياق قوله السابق « ما أسهل الهروب إلى الأمام » (١٥) ، ونحن نعرف أن أفكاره تجد كثيراً من التجاوب مع بعض المعطيات السياسية السائدة فى الوطن العربى ، إلا أننا نرى أن العلاقة بين الفلسفى والسياسى لا يمكن أن يطغى فيها الهاجس السياسى على ممكنات التأمل الفلسفى ، فاليوثيبات والأفكار الراديكالية منتوجات تنتمى إلى دائرة الفلسفات الخلاقة ، الفلسفات التى لا تخضع للإكراهات السياسية الظرفية ، قدر ما تحاول بلورة آفاق مفتوحة للنظر ، وهو أمر يساهم فى صياغة الممكنات التاريخية والنظرية لمعضلات السياسة والتاريخ والفكر ، أما تغليب السياسى فى غليانه الواقعى فى مجال التفكير الفلسفى وبناء

النظر انطلاقاً منه ، فإنه يولد الفلسفات التبريرية ، وفلسفات الوفاق السكوني ، كما يولد العقائد ، والعقائد مهما اختلفت سقفاها القطعي ، المناهض لكل فكر مفتوح .

وفى موضوع الهوية والحداثة نقف أيضاً على معطيات مماثلة للموقف السابق ، عقيدة فلسفية ، مقابل منزع ريبى متوتر ، فى كتابة العروبي منذ «العرب والفكر التاريخي» ، إلى نص أوراق (١٦) ، حماسة الدعوة الملتزمة بروية فكرية محددة ، ولا جدال فى غنى وثراء تفكير العروبي «التفكير الذى يتسم بالإتزان والركة والمتانة (١٧) » ، على حد تعبير هشام جعيط ، فقد كان من الأوائل الذين بلوروا تقاليد جدية فى التأمل الفلسفى والعقائدى ، فى الكتابة العربية المعاصرة ، أما هشام جعيط ومنذ إصداره لمؤلفه «الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربى» سنة ١٩٧٤ إلى مؤلفه الثانى التركيبى «أوربا والإسلام» ١٩٧٨ ، فإنه يقدم جهداً فلسفياً متميزاً بنبرته المتوترة ، ويعبر عن درجة عالية من شقاء الوعي العربى .

ففى كثير من نصوص هشام جعيط ، نعر على توافق كلى بينه وبين العروبي وبينه وبين الجابري ، وبينه وبين أركون إلا أنه رغم كل الإلتقاءات التى يمكن تبينها بينه وبين زمرة المفكرين الآخرين ، يظل نسيجاً متفرداً ، تظل نصوصه مشحونة بكثير من التوتر والتردد .

لنستمع إلى بعض أقواله فى موضوع الهوية والحداثة : « وحين نطرح على العالم العربى المفاضلة الرهيبة بين بقاء الإسلام ، والولاء للماضى من جهة ، والإقدام على طريق المستقبل والتجديد من جهة أخرى فإننا نحصره فى جدلية البؤس ، إذ ما قيمة مجتمع حركى يكون فاقداً لروحه ؟ لكن أيضاً ما قيمة استمرارية شخصية معينة فى المصير التاريخى (١٨) ويقول فى سياق آخر : «وما لم يتمكن المسلمون من ملاحظته - خلافاً لباقى شعوب العالم - هو أن أوربا

لم تتخل فى الواقع عن روحانيتها ، لكنها أزاقتها ، وأن ماديتها الحقيقية تستمد جذورها من مغامرة فى الفكر ، لقد تركت أوروبا دينها وكل دين ، ولكنها لم تنغمس فى البطالة والجنون بل أعادت بناء وتطوير العلم كصلاة جديدة بكثير من الزهد وإنكار الذات» (١٩) .

إن التوتر ، الزببية ، السلب ، هى الملامح البارزة فى نصوص جعيط ، إنها نصوص تترك مسافة بينها وبين متطلبات السياسى ، وهى تستوعب الأفق السياسى فى إطار أفق الفكر المفتوح ، لا الفكر المتجه صوب بناء العقائد .  
أما تاريخانية العروى فإنها رغم إقرار صاحبها بنفوره من الفلسفة فإنه فى نظرنا ، ينسج خطابه فى دائرة الفلسفات السياسية الحديثة والمعاصرة ، الليبرالية والماركسية ثم إن تصوره لوظيفة الفلسفة يقف عند التصورات التى بلورتها الماركسية التاريخية ولا يتعداها ، ومن هنا دفاعه المستميت عن دعوته المتمثلة فى ضرورة تمثل مكتسبات المعاصر الغربية ، فى الفكر والعمل ، من أجل أن نتمكن من المساهمة فى إغناء إحضاره الإنسانية .

إننا نفسر الاختلاف بين العروى وجعيط فى روح النصوص التى ينتجها كل منهما ، إن جعيط فى نظرنا يقلل من أهمية المحدد السياسى فى وقت تأملاته فهو يمتلك القدرة وربما أكثر من الآخرين على الشطح الفلسفى السالب .  
أما عبد الله العروى فإن أهميته تنأتى من البعد الراديكالى الذى يروى بلوغه ، بدفاعه عن ضرورة التعلم من درس الحداثة الغربية ، إنه لا يهادن ، وهو يدعو فى نصوصه إلى التخلص من أوزار الماضى العقائدية والفكرية ، لمصلحة حضارة يعتقد بكونيتها المستقبلية بناء على حسابات ومؤشرات واقعية (٢٠) .

### ( ٣ )

يتضح من سياق الاستدلال السابق ، أننا نتجه نحو إبراز دور العامل السياسى فى تقليص نفوذ الفكر الفلسفى داخل مجال الفكر العربى ، ذلك أن اعتماد الموجهات السياسية فى النظر الفلسفى يساهم فى تضيق مجال التأمل،

ويدفع إلى البحث عن الصيغ النظرية التوفيقية والتبريرية ، والصيغ النظرية الجاهزة لإيجاد حلول آنية ، للأسئلة التي تطفو فوق سطح الواقع .

إن هذه الطريقة فى النظر تتخلى عن مهمة الفلسفة ، وهى المهمة التى لا تتصور أبدا إمكان اكتفائها بالنظر المبرر ، قدر ما ننظر إليها كمحاولة عقلية مفتوحة فى الخلق النظرى المدرج فى طلب التاريخ ، فالفلسفة فى نظرنا عبارة عن جهد فكرى منفتح على مختلف فاعليات العقلية للإنسان فى التاريخ ، لا تحده ضوابط الممارسة السياسية ، ولا تكبحه الرهانات السياسية الظرفية عن حفر مجاريه النظرية .

ونحن نعتقد أنه كلما قلص المفكر هواجسه السياسية كلما تمكن من إنتاج تأملات فلسفية قلقة ، راديكالية ، وربما طوباوية ، وكلما غلب العامل السياسى فى الفهم والتأمل والتنظير ، قلص من دائرة فلسفية نصوصه ، لمصلحة صياغة كتابة ذات أطروحات فى الإصلاح العقائدى ، وإن هذا العامل يقف وراء الاختلافات الموجودة بين المفكرين الذين أشرنا إلى أعمالهم .

صحيح أن تغليب الهاجس السياسى فى الفكر والتفكير الفلسفى ، يعد واحداً من نتائج الفكر الماركسى فى الفكر المعاصر ، إلا أن نتائج العقيدة الماركسية فى الممارسة السياسية ، وفى مجال الفكر الفلسفى ، فى الدول التى سارت على النهج الاشتراكى ، يدفعنا إلى إعادة التفكير فى طبيعة علاقة السياسى بالفلسفى ، وعلاقة الإيديولوجى بالفلسفى ، وذلك لتعميق النظر فى هذه القضايا لمصلحة تطوير تاريخ الفلسفة .

وقد لا نختلف فى مسألة وجود صلات من الارتباط بين الفلسفى والسياسى ، إلا أن الأمر الذى ننظر إليه ببعض الاحتياط ، هو إخضاع الفلسفة لما أسماه فرانسوا شاتليه «الصواب السياسى» (٢١) ، ذلك أن هذا الإخضاع يؤدى إلى نوع من الخطاب الفلسفى التبريرى ، وهو أمر يقلص من مساحة المغامرة النظرية فتنشأ بلاغة نفعية ، ويعلن الوفاق الفكرى .

لا نريد أن يفهم مما نحن بصدد إثباته ، أننا نريد عزل الفلسفة عن السياسة ، فالالتباس الحاصل فى الدرس السقراطى بين الفلسفة والسياسة ، والالتباس الذى حصل فى الفكر الماركسى بين الفلسفة والسياسة ، كلها معطيات تجعلنا نعرف صعوبة العزل إن لم نقل استحالة ، لكننا نرى فى مراجعة نوعية العلاقة القائمة بينهما ، ومراجعة درجة التداخل والتمايز بينهما ، مسائل تتيج لنا تطوير مساحة الفلسفى فى مجال النظر العربى المعاصر ، وتقربنا من التأصيل والابتكار ، وتبعد عنا الاستكانة إلى حلول الماضى ، أو حلول النماذج الجاهزة ، أو حلول التوفيقية السهلة ، أو التوفيقية المناورة (ونحن هنا نستعمل كلمة مناورة بمعناها الإيجابى) ، وهى أمور تعنى التوقف عن التفكير ، وفى أبسط الأحوال تؤدى إلى شحوب الفكر الفلسفى .

ولا شك فى أن محدودية ما أنتجه الفكر الفلسفى العربى فى موضوع الهوية ، وفى موضوع الحداثة ، وكذلك نزوعه فى كل حين إلى المراحة عند التفكير فى مفهومى الاستمرارية والانقطاع فى التاريخ «نموذج الكتابة الفلسفية المغاربية» يعبر بجلاء كبير على قوة حضور الهاجس السياسى (٢٢) فى مستوى النظر ، إضافة إلى قيود التاريخ العقائدية المبطنة والظاهرة .

وبناء على ما سبق نحن نعتقد أن إعطاء الاعتبار للقيم الربية ، وقيم النفى والسلب ، وقيم التأصيل ، يقربنا من دائرة الكتابة الفلسفية ، وبالضبط من دائرة الفلسفة السياسية ، أو الفلسفة الحضارية المطابقة لصراعات تاريخنا المعاصر ، كما تبعد عنا تحويل الفلسفة إلى مجرد أداة للتبرير ، أداة لصناعة الأيديولوجيات المساهمة فى ترتيب أوراق الصراع التاريخى ، فهل نستطيع القول إن غياب الوعى الفلسفى الجذرى من محيط الثقافة المغاربية والعربية لا تسببه فقط هيمنة السقف اللاهوتى وحده ، قدر ما تسببه أيضاً قوة ضغط الهاجس السياسى على عملية الفكر والتفكير ؟



## الهوامش :

\* - سنهتم في هذه المحاولة بالكتابة الفلسفية في أقطار المغرب العربي خارج إطار الإشكال مشرق - مغرب ، الذي برز في ساحة الفكر العربي في السنوات الأخيرة ، إن الإطار الموجه لهذا يتعلق بمحاولة التفكير في عوائق الكتابة الفلسفية العربية ، من خلال عينة تنتمي إلى مجال الفكر الفلسفي المغاربي .

١ - نحن نستثنى هنا شخصانية محمد عزيز الحبابي ، ونشير إلى معاصرتها لمرحلة معينة من تاريخ الفكر الفلسفي العربي التي سادت فيها نزعة الانتماء لبعض تيارات الفلسفة الغربية في الفكر العربي .

٢ - راجع محاولتنا المتعلقة بمتابعة الكتب الفلسفية الصادرة في المغرب سنة ١٩٣٦ في مجلة الفكر العربي المعاصر ، ص ١١١ العدد ٤٣ سنة ١٩٨٧ .

٣ - انظر توضيحات حول هذه المسألة في مقدمة بحثنا «في بدايات الفلسفة العربية المعاصرة» ضمن هذا الكتاب .

٤ - نقصد هنا كلام الأستاذ عبد الله العروى ، والأستاذ هشام جعيط ، وهما معاً متخصصان أكاديمياً في مجال التاريخ .

٥ - لا يدخل هذا البحث في حسابه مسألة إنجاز مسح عام لكل الخطابات التي تندرج عادة في دائرة الكتابة الفلسفية المغاربية ، وهو يكفى بالوقوف على نماذج محددة للتفكير موضوع أشمل ، هو علاقة الفلسفي بالسياسي في الفكر العربي المعاصر .

٦ - راجع مقدمة دراستنا : «درس العروى» في المشروع الإيديولوجي التاريخاني في كتابنا : «التأويل والمفارقة» نحو تأصيل فلسفي للنظر السياسي العربي ص ١٢٥ - ١٢٦ - ١٢٧ - المركز الثقافي العربي بيروت ١٩٨٧ .

تتضح هذه المسألة في نقد العروى للإيديولوجية العربية المعاصرة ، كما تتضح في



مقدمة الجزء الأول من مشروع «نقد العقل العربي» للأستاذ الجابري ، وكذلك في مقدمة كتاب جعيط «الشخصية والمصير العربي الإسلامي» أما محمد أركون فإنه يثير في مختلف أبحاثه مسألة ضرورة تجديد الفكر العربي ، عن طريق صياغة المسكوت عنه واللامفكر فيه داخل هذا الفكر .

٨ - أنظر تقديمنا التحليلي لكتاب أركون «نقد العقل الإسلامي» في مجلة الفكر العربي المعاصر ص ١١٤ - ١١٩ ع ٣٧ سنة ١٩٨٦ ، وكذلك مراجعتنا للجزء الأول من مشروع «نقد العقل العربي» للأستاذ الجابري في الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي العدد ٦٦ المؤرخ بـ ٢٤ فبراير ١٩٨٥ .

٩ - مشروع النقد في قراءة التراث ، حول التكامل في أعمال الجابري وأركون ، ضمن هذا الكتاب .

١٠ - نشير هنا إلى كتابيه :

- Pour une dit critique de la rausion iolounique, maisonmeuve et larose, paris 1984 .

- Lecture du corau , maisonmeuve ev larose , pasis 1982 .

١١ - نقلاً عن مجلة «الوحدة» ص ١٦٤ ع ٢٦ / ٢٧ سنة ١٩٨٦ .

١٢ - «بنية العقل العربي» ص ٥٦٨ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٦ .

١٣ - الإسلام والحداثة ، ص ٢١ مجلة مواقف ع ٥٩ - ٦٠ سنة ١٩٨٩ .

١٤ - Pour mue aritique de la raism islawipue . page 33 .

١٥ - «بنية العقل العربي» ص ٦٥٨ (مرجع مذكور)

١٦ - أوراق - سيرة إدريس الذهنية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ١٩٨٩ .

١٧ - «الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي» ص ٧ بيروت .

- Leunope eb L'tslaw - page 11 - seuil paus 1978 .- ١٩

٢٠ - يقول العروى : «قد يتقدم المجتمع العربى بصورة ما ، قد يحرز بعض الانتصارات حتى ولو استرسل فى طريقه الحالى ، إلا أنه سيقترح الحاضر والمستقبل ظهريا مدفوعاً مرغماً ، وأعينه محدقة فى «الأمل» المتباعد تحت قيادة القوى المسيطرة حالياً ، فيعيش حياة ازواج وانفصام دائمة ، فى ظل نكسات متوقعات » من مقدمة الطبعة الثالثة للكتاب العربى والكفر التاريخى ص ٢١ .

٢١ - الفلسفة المعاصرة فى فرنسا ، ضمن مصنف تساؤلات الفكر المعاصر ، لمجموعة من المفكرين ، ترجمة محمد سبيلا ص ١١ دار الأمان - الرباط ١٩٨٧ .

٢٢ - فى هذه المحاولة رادفنا مصطلح «الهاجس السياسى» بالعامل السياسى والوجه السياسى ، والسياسات الظرفية وذلك لتمييزه عن الفكر السياسى والفلسفة السياسية .

# المحتويات

الموضوع	الصفحة
٧	
مقدمة.....	١١
١ - فى بدايات الفلسفة العربية المعاصرة .....	
٢ - الفلسفة العربية المعاصرة :	٢٩
مسار وإشكال.....	
٣ - نحن والأنوار : من إيديولوجيا التتوير إلى	٤٩
فلسفة الأنوار.....	
٤ - صعوبات الاستعمال المنهجى للمفاهيم : فى	
نقد قراءة الطيب تيزينى وحسين مروة	٧٣
للفلسفة الإسلامية .....	١٠٣
٥ - مشروع النقد فى قراءة التراث .....	
٦ - الفلسفة والهاجس السياسى : فى عوائق الكتابة	١١٩
المغاربية.....	

## مجلس أمناء مركز ابن خلدون

- |   |  |
|---|--|
| د. إبراهيم حلمي عبدالرحمن<br>نائب رئيس الوزراء ووزير التخطيط                        | د. عمرو محيي الدين<br>اقتصادي-أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة            |
| د. باريار إبراهيم<br>الممثل الاقليمي لمجلس السكان في الشرق<br>الايوسط وشمال أفريقيا | د. محمد القصاص<br>خبير البيئة، وأستاذ العلوم بجامعة القاهرة            |
| د. حازم البيلاوي<br>رئيس البنك المصري لتنمية الصادرات                               | د. محمد محمود الجوهري<br>نائب رئيس جامعة القاهرة                       |
| أ. حسين أحمد أمين<br>كاتب - سفير مصر السابق في الجزائر                              | د. محمود محفوظ<br>رئيس الخدمات بمجلس الشورى<br>وزير الصحة الأسبق       |
| د. سمير سرحان<br>كاتب - رئيس الهيئة العامة للكتاب                                   | د. مصطفى الفقي<br>سياسي - وديبلوماسي                                   |
| أ. عبد الرؤف الريدي<br>محام - وسفير مصر السابق في واشنطن                            | أ. مني ذو الفقار<br>محامية - من قيادات العمل النسائي                   |
| د. عبدالعزیز حجازي<br>اقتصادي رئيس وزراء مصر الأسبق                                 | د. منى مكرم عبيد<br>استاذة - عضو مجلس الشعب                            |
| أ. عزيزة حسين<br>من قيادات العمل الاجتماعي والنسائي                                 | د. يحيى درويش<br>من قيادات العمل الاجتماعي<br>خبير سابق بالأمم المتحدة |
| د. علي الدين هلال<br>رئيس مركز البحوث السياسية وأستاذ<br>السياسة بجامعة القاهرة     |  |
- د. سعد الدين إبراهيم  
رئيس المركز

ابن خلدون : سمي المركز على اسم المفكر العربي الكبير عبدالرحمن ابن خلدون ولد في أول رمضان سنة ٧٢٢هجرية الموافق ٢٣مايو ١٣٣٢ ميلادية. وهو المؤسس الحقيقي للعلوم الاجتماعية العربية، فقد خدم في عدد من البلدان العربية (تونس والمغرب والاندلس ومصر والحجاز والشام) مما أتاح لهذا المفكر النابغة أن يجمع بين النظرية والتطبيق على نحو خلاق غير مسبوق، وتجلّى ذلك في كتابه الشهير والمقدمة الذي يعتبر أهم مؤلف إجتماعي عن المجتمع والدولة في العصور الوسطى الإسلامية .

## دار سعاد الصباح

### للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية  
مسجلة بدولة الكويت  
وجمهورية مصر العربية  
وتهدف إلى نشر ما هو  
جدير بالنشر من روائع  
التراث العربي والثقافة  
العربية المعاصرة  
والتجارب الابداعية  
للشباب العربي من المحيط  
إلى الخليج وكذا ترجمة  
ونشر روائع الثقافات  
الأخرى حتى تكون في  
متناول أبناء الأمة .. فهذه  
الدار هي حلقة وصل بين  
التراث والمعاصرة وبين  
كبار المبدعين وشبابهم  
وهي نافذة للعرب على  
العالم ونافذة للعالم على  
الأمة العربية وتلتزم الدار  
فيما تنشره بمعايير  
تضعها هيئة مستقلة من  
كبار المفكرين العرب في  
مجالات الابداع المختلفة .

## هيئة المستشارين

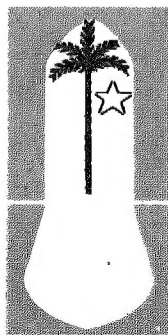
- أ . إبراهيم فريح ( مدير التحرير )  
د . جابر عصفور  
أ . جمال الغيطاني  
د . حسن الابراهيم  
أ . حلمى التونى ( المستشار الفنى )  
د . خلدون النقيب  
د . سعد الدين إبراهيم ( العضو المنتدب )  
د . سمير سرحان  
د . عدنان شهاب الدين  
د . محمد نور فرحات ( المستشار القانونى )  
أ . يوسف القعيد

طبع بمطابع دار الهلال



## فلسفة العربية المعاصرة

هذا الكتاب هو الكتاب المناسب في الوقت المناسب تماماً . فيه كل ما يحتاجه الإنسان العربي الآن .  
دعوة صريحة وواضحة للتفكير .  
نقد للتراث .  
دفاع عن قيم معاصرة .  
إضفاء النسبية على مبتكرات تاريخ الفلسفة .  
يعطي الاعتبار الأول للعقل باعتباره القادر على مواصلة طرح الأسئلة التي تحفز على النظر وتدعو للتفكير .  
غير أن الكتاب في النهاية لا يدعى أنه يمتلك شجاعة الإعلان عن الثورة على إجابات ، ولكنه فقط لديه شجاعة إبداء الرأي ومحاولة ترسيخ قواعد الحوار العقلاني .  
الحوار العقلاني !!  
هل توجد قيمة أخرى تحتاجها أمة العرب أكثر من هذه القدرة على الحوار .  
الحوار الغائب ؟  
متى نجعله الحوار الحاضر ؟  
ذلك هو السؤال .



دار سعيد الصباح